الأدب المقارن و دور الأنساق الثقافية في تطور مفاهيمه و اتجاهاته

د. حيدر محمود غيلان

تأثر الأدب المقارن في نشأته وتطوره بعوامل مختلفة، تعود في مجملها إلى التوجهات الثقافية أو الفكرية السائدة في مرحلة معينة ، فالأدب المقارن كغيره من المجالات المعرفية وفروع الدراسات الأدبية الأخرى ـ كالتاريخ الأدبي، والنقد الأدبي، والنظرية الأدبية، شهدت مفاهيمه ومناهجه وميادينه منذ نشأته في النصف الأول من القرن التاسع عشر إلى يومنا تغيرات جوهرية مما يجعل التعامل السطحي مع هذه التغيرات أو تجاهلها عملا يتنافى مع طبيعة العلوم وماتتطلبه من مواكبة لكل جديد بغض النظر عن موقف الدارسين من هذا الجديد .

فلا يكفي ـ في رأينا ـ أن ننظر إلى تطور اتجاهات الأدب المقارن ،ومفاهيمه من خلال تطور فرع من فروع الدراسات الأدبية كالنقد

الأدبـي مـثلاً[1]، و لا يكفـي أن نتنـاول هـذا التطـور مـن خـلال تتبـع جزئيـات متفرقـة غيرشـاملة[2]، وإذا أردنـا أن يكـون تقييمنـا لهـذه التطـورات واقعيـا ، فالأفضل أن ننظـر إلـى مـانتج عنهـا مـن مفـاهيم واتجاهات، من خلال ربطها بالنسق الثقافي،الذي أسهم في تشكيل كل اتجـاه، حتـى نـستطيع تكـوين رؤيـة متكاملة،تفسر اخـتلاف اتجاهـات الأدب المقارن ، وتـربط بين المفـاهيم ومـا تطلبتـه من تطبيقـات، فمن غيـر المنطقـي أن نتعـصب لاحـد هـذه الأتجاهـات ، ونعـد ظهورالاتجاهات الأخرى نوعـا مـن التـرف أو العبث،فكل اتجـاه مـن اتجهـات الأدب المقـارن ظهـر اسـتجابة لـسياقات ثقافيـة موجهـة يـتم النظر إلى مفهوم الأدب المقارن ووظائفه من خلالها، مع الحفاظ علـى التوجـه العـام لـلأدب المقـارن، الـذي يلبـي فـي الأصـل، الحاجـة إلـى التواصـل الأدبـي بـين الأمـم، وتوسيع النظـرة الأدبيـة لتتجاوز الحـدود القومية إلى آفاق أكثر اتساعاً وشمولاً.

فلا يخفى ما للأنساق الثقافية من دور في توجيه اهتمامات الكتاب و القـراء فـي مختلـف المجـالات ، فعلـى الـرغم من أنهـا قد تكـون غيـر

(1) أنظر مـثلاً الأدب المقـارن والاتجاهـات النقديـة الحديثـة ، عبـده عبـود ، مجلـة عـالم الفكـر ، الكويت ، المجلد الثامن والعشرين ، العدد الأول ، (يوليو – سبتمبر) ، ص268 – 280.

(2) معظم الكتب النظرية في الأدب المقارن لا تنظر إلـى هذه الخلفيات نظـرة شـاملة وإنمـا تكتفي ببعض الإشارات المتفرقة ولا تربطها بالسياق الثقافي الشامل.

(3) لمزيد من التفصيل حول دور الأنساق الثقافية وأهمية النظر الى الأدب من خلالها ينظر : النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، عبدالله الغذامي ،المركز الثقـافي العربـي ، ط2 ،2001، ص76 وما بعدها .ولايهمنا هنا الالتزام الحرفي بما حدده من شروط لدراسة النسق الثقافي في الشعر .

معلنة أو محددة إلا أن لها الغلبة، حيث يندفع الجمهور إلى استهلاك المنتوج المنطوي عليها لأن الأنساق الثقافية لا تشكل من قبل شخص ، و إنما تؤلفها الثقافة(3) ، فالاهتمام بالذات الفردية ـ مثلا ـ ظهر في مرحلة معينة لم يقتصر على الفكر أوالفلسفة فحسب وإنما شمل الأدب والنقد والادب المقارن ،والخطاب السياسي والاعلامي ... الخ .

و سوف نحاول الكشف عن نسق كل اتجاه من اتجاهات الأدب المقارن البارزة حتى نستطيع تقييم أسسه واجراءاته تقييما صحيحا في ضوء متطلبات المرحلة و نصل إلى تعليل مقبول لتطور مفاهيم وتطبيقات الأدب المقارن ، دون تعصب لاتجاه أو إلغاء لآخر، لاسيما وأن الأدب المقارن في الوطن العربي قد عانى من تعصب غير مبرر لاتجاه تشكل في الأصل استجابة لسياق ثقافي يلبي حاجة أمة أخرى ، في الوقت الذي نحن فيه بحاجة إلى تكييف مفاهيمه وتطبيقاته بما يتلاءم مع متطلبات ثقافتنا وخصائص أدبنا في هذه المرحلة.

الأدب المقارن و سلطة الوعي القومي (الاتجاه الفرنسي):

ظهر مصطلح الأدب المقارن (Comparative Literature) في فرنسا على يد آبل فيلمان (Able Villeman) عام 1828م، وقد تحدد مفهومه في طور النشأة وفقاً لخلفيات ومقتضيات تطلبتها تلك

المرحلة كان لها دور في رسم ملامح ما سُمي بالاتجاه الفرنسي في الأدب المقارن(1)، فمما لاشك فيه أن أسس هذا الاتجاه لم تشكلها المصادفة ،وإنما كانت استجابة لنسق ثقافي أستدعى تحديد مجال هذا الفرع الجديد من الدراسات الأدبية بدراسة التأثير المبني على حقائق وعلاقات تاريخية بين أدبين قوميين مختلفين في اللغة ، فما الذي دفع المقارن الفرنسي إلى الاهتمام بإثبات التأثير، ودراسة العوامل والعلاقات التاريخية، وما يتصل بها من الوسائط التي تساعد على نقل أدب قومي إلى أدب قومي آخر، واشتراط اختلاف الأدبين في القومية واللغة حتى تدخل الدراسة ضمن اهتمامات الأدب المقارن؟

لابد أولا من الإشارة إلى أن ظهور الأدب المقارن تزامن مع ظهور النزعة القومية الفرنسية، التي أدت إلى ثورة الفرنسيين على الكتابة باللغات اللاتينية، واتجاههم إلى اللغة الفرنسية، حيث نشأ عصر التنوير في القرن الثامن عشر، على أسس اللغة والثقافة في فرنسا، فقد اتجه االفرنسيون إلى الاهتمام بدراسة اللغات الرومانسية وآدابها، والكشف عن دروها في نهضة الآداب الأوربية الحديثة(2) ،

---

(1) لمزيد من التفصيل حول نشأة الأدب المقارن في فرنسا ينظر: الأدب المقارن ـ محمد غنيمي هلال ،دار العودة ،بيروت ، ص20-27.
ينظر أيضاً: الأدب المقارن بين المفهومين الفرنسي والأمريكي ـ عبدالحكيم حسان ـ مجلة فصول ـ المجلد (3) ـ العدد (3) ـ 1983م ـ ص11-14.
(2) ينظر: مبادئ علم الأدب المقارن ـ الكسندر ديما ، ترجمة محمد يونس ، دار الشوؤن الثقافية ، بغداد ،1987، ص32.

في محاولة لإعادة الاعتبار لهذه اللغات التي تمثل أساس اللغات القومية الأوربية الحديثة، بعد أن تعرضت للإهمال بحجة أن الأدب لا يكون ساميا إلا إذا كان مكتوباً باللغة اللاتينية، ومن هنا ندرك سر تركيز أصحاب هذا الاتجاه على القومية في دراسة التأثير، واشتراط اختلاف اللغة حتى تصح المقارنة، فالفرنسي في دراسته المقارنة ــ لاسيما في طور النشأة ــ كان حريصاً على إثبات إسهام القوميات لاسيما القومية الفرنسية، في نهضة الآداب الأوربية المختلفة وقد دفعه اعتزازه بقوميته إلى اشتراط اختلاف لغة الأدبين المقارنين لكي يكشف عن أهمية تعدد اللغات، ويظهر تميز لغته الفرنسية عن اللغة اللاتينية وعن اللغات الأوربية الأخرى.

وقد أدى الاهتمام برسم ملامح القومية الفرنسية واثبات تفردها إلى ازدهار علم التاريخ في القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر في فرنسا، فقد وضع أسس هذا المنهج فرانسوا جيرو وأوجستين فيري، من خلال كتابتهما للتاريخ القومي العام لفرنسا، وبعض الدول الأوروبية، في العقدين الثالث والرابع من القرن الثامن عشر، وقد أفاد النقاد والأدباء الفرنسيون من هذا المنهج في كتابة تاريخ الأدب الفرنسي، وقاموا بترسيخ منهج النقد التاريخي، الذي أزدهر على يد

وآفاق الأدب المقارن ، حسام الخطيب ، دار الفكر العاصر، ط2،بيروت ،1999 ، ص94.

سانت بيف، وهيبولت تين، وآخرين[1] حيث نظروا إلى الأدب من خلال عوامل تاريخية: هي الجنس، والزمان، والمكان، فجنسية الأديب أو قوميته تلعب عندهم دوراً في تحديد خصائص الأدب وهذه النظرة إلى أهمية الجنسية ناتجة عن بروز الوعي القومي في فرنسا وغيرها من دول أروبا ، مما أدى الى تطور العلوم التاريخية التي تبحث في أصول الأنواع البشرية، وأنواع المعارف والعلوم الأخرى، ومنها نظرية دارون في النشوء والتطور.

وكان من الطبيعي في ظل التوجهات القومية في اللغة والادب والتاريخ في فرنسا، أن يتجه الأدب المقارن اتجاهاً قوميا تاريخياً، هدفه أن يكشف عن الاسهامات التي يقدمها أدب قومي في تطور أدب قومي آخر، لذا اشترطوا في دراسة التأثير أو التأثر أن تكون العلاقة بين الادبين القوميين مبنية على وقائع ووثائق تاريخية، تثبت انتقال الأدب المؤثر إلى الأدب المتأثر، مما أدى إلى التركيز على وسائط التأثير كالترجمة والرحلات والكتب، وتتبع سيرة الكاتب المؤثر، وسيرة الكاتب المتأثر، وكأن المهمة الأساسية للمقارنة في هذا الاتجاه، تنتهي عند إثبات التأثير بين أدبين قوميين .

(1) حول نشأة المنهج التاريخي وتطوره في فرنسا، ينظر: نظرية الأدب ، اوستن وارين و رينيه ويليك ، ترجمة محيي الدين صبحي ،المجلس الأعلى لرعاية الفنونوالآداب والعلوم ، 1972 ص62-63، ومبادئ علم الأدب المقارن ، ص 29 ، 37 .

وما يقوي فرضية ارتباط الأدب المقارن الفرنسي بالنزعة التاريخية القومية، أنه نشأ في البداية فرعاً من فروع تاريخ الأدب، فقد وجد المؤرخ الأدبي الفرنسي أثناء متابعته لتطور الأدب الفرنسي، أن هنالك جوانب تخرج عن نطاق اهتمامه أو دائرة عمله، تتمثل في خروج الأدب القومي إلى آداب أخرى مؤثراً أو متأثراً وحتى يتم إكمال كتابة تاريخ الأدب الفرنسي، لابد من تتبع هذه التأثيرات.

فقد ظهر الأدب المقارن عند فليمان تلبية لهذه الرغبة، عندما كان يلقي محاضرات في جامعة السربون عن تاريخ الأدب الفرنسي (1828– 1829) حيث تناول في هذه المحاضرات التأثيرات المتبادلة بين الأدب الفرنسي، والأدب الإنجليزي، وتأثير الأدب الفرنسي في إيطاليا في القرن الثامن عشر، هدفه من وراء ذلك تقديم صورة عن «ما تلقته الروح الفرنسية من الآداب الأجنبية وما أعطته لها من أجل كتابة تاريخ أدب شامل لفرنسا»[1].

وظل هذا الهدف القومي التاريخي متحكماً في سير الدراسات المقارنة بعد فليمان، ويتضح ذلك من خلال تركيز المقارنين على التأثير الثنائي المتبادل بين أدبين قوميين، يكون عادة الأدب الفرنسي أحد طرفي هذه المقارنات؛ فما دام الهدف هو إثبات الهوية القومية

(1) الأدب العام المقارن ،دانييل هنري باجو ، ترجمة غسان السيد ،اتحاد الكتاب العرب ، دمشق 1997، ص13.

بإكمال كتابة تاريخ الأدب القومي، فإن المؤرخ عادة يتمركز حول أدب قومية واحدة، ولا يستطيع القيام بكتابة تاريخ عدة آداب في آن واحد، وهذا أيضاً ما دفعهم إلى عدم الاعتراف بالدراسات المقارنة التي تتسع لتشمل عدة آداب في وقت واحد، وكذلك الدراسات التي تتناول التشابه بين الآداب القومية، حيث يتم تصنيفها تحت ما يسمى بالأدب العام (General Literature)، فدراسة الرومانسية في الأدب الأوروبي لا تدخل عندهم في الأدب المقارن، وكذلك دراسة تأثير شكسبير في الأدب الأوربي بشكل عام، لأن هذا النوع من الدراسات ـ كما يبدو ـ لا يتفق مع توجههم القومي الذي يهدف إلى كتابة تاريخ الأدب الفرنسي، فدراسة التأثير المبني على حقائق ووقائع تاريخية تثبت دور كاتب أو أمة في مسيرة أدب قومي هي المعول عليها، أما دراسة التشابه المبني على توارد الخواطر أو على الصدفة ، وكذلك دراسة تأثر عدة آداب قومية جملة واحدة بأديب أو باتجاه أدبي ، فلأنها لا تخدم أو توثق أو تكمل كتابة تاريخ الأدب لقومية محددة ؛ فقد أخرجها أصحاب هذا الاتجاه من دائرة الأدب المقارن .

ويظهر تأثير التوجه الثقافي القومي في سير الأدب المقارن في فرنسا من خلال تتبع جهود أبرز المقارنين الفرنسيين، حيث تظهر

الثنائية والتمركز حول القومية والتوجه التاريخي، من خلال عناوين أبحاثهم وكتبهم التطبيقية.

فقد ألقى جان جاك أمبير (J. J. Ampere)1930م، محاضرات في مرسيليا وباريس تمحورت حول التأثيرات المتبادلة بين الأدب الفرنسي، وعدد من الآداب الأجنبية في العصور الوسطى[1]، وهذا النسق أيضاً جعل الأديب المقارن الفرنسي المشهور(بول فان تيجم) يركز على التفريق بين الأدب المقارن والأدب العام، فيجعل الأدب المقارن مختصاً بدراسة العلاقات الأدبية الثنائية المبنية على التأثير المثبت بالوثائق التاريخية، حيث نشر عام 1921م بحثاً تحت عنوان: التركيب في التاريخ الأدبي: الأدب المقارن والأدب العام[2]، مما يوحي بانطلاقه من تاريخ الأدب الفرنسي ويكشف عن تأثره بالمؤرخ الفرنسي غوستاف لانسون[3] لاسيما أن له عددا من المؤلفات في تاريخ الأدب.

وعندما أدخل فرديناند برونتير الأدب المقارن إلى الكلية الطبيعية العليا في نهاية القرن التاسع عشر «فإنه أراد بذلك مقارنة

(1) آفاق الأدب المقارن عربيا وعالميا ، حسام الخطيب ، ص95

(2) ينظر تفريقه بين الأدب العام والادب المقارن في كتابه الأدب المقارن الذي ترجمه الى العربية سامي الدروبي .

(3) مبادئ علم الأدب المقارن ، ألكسندر ديما ، ص39.

تطور الأدب الفرنسي بتطور الآداب الغربية الأخرى ومتابعة تطور الأجناس الأدبية (كما فعل آخرون مع البشر) [1].

وإذا نظرنا في عناوين المجلدات التي صدرت في عام 1930م للدراسات المقارنة في فرنسا نجد التركيز على تاريخ الأدب الفرنسي في علاقاته بالآداب القومية المكتوبة بلغات أخرى ، يطغى على المجالات الأخرى [2].

إن هذا التوجه في الأدب المقارن، يكشف عن طبيعة النسق الثقافي المهيمن في تلك المرحلة ، فمن الطبيعي أن ينطلق المهتم بإثبات هويته القومية ومكانتها ، من الحرص على دراسة تفاعل أدبه القومي مع الآداب القومية الأخرى، وتوثيق هذا التفاعل بالدلائل والوقائع التاريخية، وهذا يجعلنا نتفهم وجهة نظر هؤلاء ونعترف بأهمية جهودهم ، وفي الوقت نفسه نتفهم موقف المعارضين لهذا الاتجاه ؛ فقد انطلقوا من أنساق وخلفيات ثقافية مختلفة، ومن غير الطبيعي أن يتوقف تطور الأدب المقارن عند مرحلة كانت تلبي احتياجات ملحة لدى الفرنسيين أو من تأثر بمنهجهم لتلبية متطلبات ثقافية مشابهة ، فالاعتزاز بالقومية وتضخيم دورها مرحلة تمر بها معظم الشعوب، وقد وجد الأتجاه الفرنسي قبولا في معظم دول العالم

(1) الأدب العام المقارن ، ص13.
(2) الأدب العام المقارن ، ص14-15.

،ولكنه تعرض للهجوم والرفض عندما ظهرت أنساق وتوجهات مناهضة للتركيز على دور القوميات في تطور الثقافات والآداب.

الأدب المقارن و سلطة الوعي الاجتماعي (الاتجاه الماركسي) :

في دول الاتحاد السوفيتي السابق ودول شرق أوروبا سادت الاشتراكية الماركسية ، بما تحمله من رؤى وتوجهات سياسية واقتصادية مما أدى إلى تشكل نسق ثقافي يرسخ سلطة الحراك الاجتماعي في المجالات المختلفة ، ويتم النظر الى جوانب الحياة من خلال هذا النسق ، فالاشتراكيون ينطلقون من الثورة على الاقطاع أو الطبعة البورجوازية من أجل إيجاد عالم بدون طبقات ؛ تختفي فيه الصراعات الناتجة عن الأطماع القومية أو الفردية ، ولذا تذوب القومية هنا وتفقد سلطتها ، ويتم تجاهل الذات الفردية لتصبح العوامل الاجتماعية أو الظروف الأجتماعية هي المسؤولة عن صياغة الحياة ، وتحديد نمط العيش ، وانواع الفنون والآداب ، بغض النظر عن القومية أو اللغة أو الجنس ، ولذا عملوا على إذابة القوميات في إطار هذا النسق الثقافي ، مع اعترافهم بالتنوع الذي يثبت أن الظروف الاجتماعية هي التي تصنع التاريخ، وهذه الرؤية أثرت في نظرتهم إلى الأدب ونقده وتاريخه، و إلى مفهوم الأدب المقارن و وظيفته.

ومن هنا يأتي إصرارهم على إثبات أن الواقع الاجتماعي هو الذي يحدد أنماط الأدب ، وسماته وليس الفرد ولا القومية فحياة

الـشعوب «بمـصـائرها التاريخيـة، بأحـداثها، وتقاليـدها، بتناقـضـاتها، بعلاقاتهـا الاجتماعيـة، وخـصـوماتها، وتطـور الشخـصية الإنـسانية، وغناها الروحي، باختصار إن مختلف جوانب الواقع نفسه تطلبت قيام الأنواع الأدبية»[1].

وهـذا المفهـوم الاشـتراكي لـلأدب كمـا يقولـون «يعطـي للعمليـة الأدبية امكانيـة التنـاول الواسـع، لكل الحقـائق الجديرة بالاهتمـام، عند ظهـور المـسببات الـشاملة، فقـد أدخلـت الاشـتراكية الظـاهرة الأدبيـة ضمن نظـام العلاقـات المتبادلـة بين القاعدة، والبنـاء الفوقي (الأدب)، وكشفت عن الطبيعة المتواصلة لعلاقـة الأدب بـالظروف الاجتماعيـة، والاقتصادية "[2].

ولا يمكـن فهـم التـاريخ الأدبـي فهمـاً صـحيحاً ــ فـي رأيهـم ــ إلا بالنظر إليه على أساس أنه عملية من خلالها« تبرز القوانين العامة للتطور الأدبي»[3] .

ومـن هـذا المنطلـق أهتم النقـاد الماركسيون بدراسـة الـصلات بين الأدب والمجتمع، ووضعوا تصورهم، لما ينبغي أن يكون عليـه الأدب

1- نظريـة الأدب ، مجموعـة مـن الكتـاب الـسوفييت، ترجمـة جميـل نـصيف التكريتـي، وزارة الاعـلام العراقية،1980، ص80.
2- مبادئ علم الأدب المقارن ، ص11.
3- نفسه ، ص18.

هدفهم من دراسة النصوص إثبات أن الأدب انعكاس لقضايا المجتمع[1] .

ومن الملاحظ أن النسق الثقافي الذي يوجه اهتمامات أصحاب هذه الاتجاه يختلف عن السياق الثقافي الذي حدد اهتمامات المقارنين الفرنسيين مما سيؤدي إلى اختلاف مفهوم الأدب المقارن، وميادينه عن المفهوم الفرنسي القديم الذي اتجه إلى دراسة التأثير المشروط باختلاف اللغة بين أدبين قوميين ، فمع أن الماركسية تلتقي مع الاتجاه الفرنسي في الميل إلى التاريخ، إلا أنها تختلف عنه في الأهداف والنتائج، فالاتجاه الفرنسي يستعين بالمنهج التاريخي لإثبات تأثيرأو تأثرالأدب القومي بمعزل عن القوانين المتحكمة في تطوره، بينما الماركسيون يستخدمون المنهج التاريخي لإثبات دور المجتمع والصراع الطبقي في تشكيل الأدب وظهور اجناسه، فإذا تشابهت عندهم الظروف الاجتماعية في عدد من البلدان، سيؤدي ذلك التشابه الاجتماعي إلى ظهور أدب متشابه، ومن هنا أصبحت الدراسات الأدبية المقارنة موجهة كغيرها من المجالات المعرفية ، لإثبات مدى تحكم الظروف الاجتماعية، وتأثيرها ، ولذا ظل أصحاب هذا الاتجاه غير آبهين بمفهوم الأدب المقارن كما حدده الاتجاه الفرنسي ، فلم يكن الأدب المقارن مجالاً معترفاً به حتى أواخر الخمسينات من القرن

1- ينظر : نظرية الأدب ، رينيه ويليك ، ص120.

العشرين ؛ لأن الممارسة المقارنة كانت لديهم مبنية على فلسفة مختلفة، وتمارس في نظرية الأدب بشكل أكثر اتساعاً .

وقد شهدت الستينات محاولات من قبل أنصار هذا الاتجاه لصياغة الأسس التي يقوم عليها الأدب المقارن الماركسي ، فعقد مؤتمر للأدب المقارن عام 1960م وظهرت محاولات في أوروبا الشرقية، من أجل لم شمل المقارنين الاشتراكيين، و تم تكوين ندوة بودابست 1962 وندوة برلين عام 1966م من أجل تحديد مفهوم اشتراكي للأدب المقارن يتلاءم مع رؤيتهم الاجتماعية[1]

ويحدد الكساندر ديما هذا المفهوم الاشتراكي للأدب المقارن قائلاً : «فيما يخص علم الأدب المقارن كمجال علمي، من مجالات الأدب، فإن مادة أبحاثه الموضوعية المتواصلة، هي الناحية الخاصة بالظواهر الأدبية بالذات، وليس مجرد دراستها كلاً على حدةٍ، أو في مجاميع ما ضمن مرحلة تاريخية مناسبة، بل تناسب تلك الظواهر مع شبيهاتها في أجواء قومية أخرى. هنا يتوجب علينا أن نلاحظ أن الاختلافات اللغوية في مثل هذا التناسب، لا تعتبر أساساً كافياً للأبحاث من هذا القبيل، رغم أهميتها الكبيرة، ذلك لأن التناول المقارن يتم بين الآداب ذات اللغة الواحدة "[2].

1- ينظر : مفاهيم نقدية ، رينيه ويلك ، ترجمة محمد عصفور ، عالم العرفة ، العد، الكويت1987، 110 ، ص351، وآفاق الأدب المقارن ، ص116-117.
2-مبادئ علم الأدب المقارن ، ص11.

ويشير إلى تأثر الأدب المقارن كغيره من فروع الدراسات الأدبية بالنسق الثقافي الاشتراكي المهتم بدور الظروف الأجتماعية المحيطة ، قائلاً: «كأي مادة علمية أخرى عن الأدب، يحاول علم الأدب المقارن أظهار الطبيعة العامة للعلاقات بين الآداب، آخذاً بعين الاعتبار وقبل كل شيء العوامل الاجتماعية والاقتصادية في تحليله العلمي للظاهرة الأدبية»[1].

و هكذا يتسع مفهوم الأدب المقارن تحت سلطة الحراك الاجتماعي متجاوزا دراسة التأثير المبنية على الثنائية القومية ، ليشمل دراسة التشابهات الناتجة عن تشابه الظروف الاجتماعية في عدد من القوميات، وهذا لا يعني أنهم يهملون دراسة التأثير، لكنهم يرون أن ظهور تشابه كما يقول جيرمونسكي في آداب لا صلات بينها يدل على أن التشابهات لا تكون دوماً ناتجة عن التأثر، وإنما تخضع لحاجة المجتمع وظروفه ومن هنا فلا يكون التأثير إلا عندما يكون واقع الآداب المتأثرة بحاجة إلى المؤثرات الأجنبية ولديها الاستعداد لتلقيها[2]. فالتأثير والتشابه ينتجان عن تشابه الظروف الاجتماعية المحيطة بالآداب القومية.

ولا يدرس التأثير لذاته وإنما لاثبات أن تشابه الظروف الاجتماعية أستدعى ظهور هذه الآداب المتشابهة ، ولا يخضع لقوة

1- نفسه ، ص11.
2- الأدب المقارن والاتجاهات النقدية الحديثة، ص282.

الأدب المؤثر، بقدر خضوعه للعوامل الاجتماعية التي أستدعت هذا التأثير ، ومن هنا يشجع أصحاب هذا الاتجاه على توسيع الدراسات المقارنة لأنهم ينطلقون من رؤية اجتماعية لاترتبط بقومية أو مكان ،بل سعوا إلى ترسيخها ونشرها في مختلف أنحاء العالم ، فكلما اتسعت الدراسة لتشمل عدداً أكبر من الآداب القومية المتشابهة زادت حجة أصحاب هذا الاتجاه في إثبات سلطة الظروف الاجتماعية ؛ ولذا هاجموا المركزية الأوربية القائمة على التعصب للجنس أو القومية في الدراسات المقارنة للآداب ، و إغفال لآداب العالمية الأخرى[1] ، وهذا الاختلاف كماذكرنا يرجع الى اختلاف المنطلقات الثقافية ,فلكل اتجاه نسق ثقافي مختلف ، استدعى مفاهيم وتوجهات مختلفة .

الأدب المقارن و سلطة الوعي الإنساني (الاتجاه الأمريكي) :

لم يجد مصطلح الأدب المقارن (comparative literature) في اللغة الإنجليزية القبول الذي وجده في اللغة الفرنسية، مما أدى إلى تأخر الاهتمام بهذا النوع من الدراسات، لاسيما في الجامعات الإنكليزية والأمريكية، وأدى أيضا الى ظهور أعتراضات على المفهوم الفرنسي ، نتيجة لظهور سياق ثقافي معارض للتاريخية القوميو والاجتماعية ، شكل مايعرف بالاتجاه الأمريكي .

1- ينظر: مقدمة في نظرية المقارنة ،عزالدين المناصرة ، دار الكرمل ،ط1، 1988، ص21.

فالإنجليزية لا تحبذ اجتماع كلمة (مقارن): comparative مع كلمة (أدب) literature، وذلك لأن كلمة أدب لم تعد تحمل كما هو الحال في الفرنسية ــ في معناها معرفة الأدب ودراسته، وإنما أصبحت تدل على الكتابات الأدبية بشكل عام[1]، ولذا نجد أن الشكوى من غموض مصطلح الأدب المقارن ظهرت في أول محاولة منهجية في الإنجليزية على يد بوسنت posenett في كتابه (الأدب المقارن) عام 1886م[2]، وقد دفعت هذه الخلفية اللغوية الأستاذ لين كوبر 1927م ـ 1943م إلى تسمية القسم الذي ترأسه في جامعة كورنيل الأمريكية قسم "الدراسة المقارنة للأدب" لأن مصطلح الأدب المقارن في رأيه «لا أصل له، ليس له معنى ولا مبنى، فلو جاز لنا لجاز أن نقول: البطاطا المقارنة، أو القشور المقارنة»[3].

فقد ظلت دراسة الأدب المقارن حتى عشرينيات القرن العشرين في أمريكا تختلط بدراسة الأدب العام، والأدب العالمي، والإنسانيات، ودراسة الكتب العظيمة[4]، وهذا لا يعود – كما يبدو – إلى جهل الدارسين لمفهوم الأدب المقارن ومجالاته لدى الفرنسيين ، بل كان هذا الاختلاف نتيجة لظهور متطلبات ثقافية وتوجهات بحثية بلورها رينيه ويليك في ثورته على المفهوم الفرنسي ، فقد أعلن في المؤتمر

(1) مفاهيم نقدية ، رينيه ويليك ، ص305– 306.
(2) مقدمة في نظرية المقارنة، ص13.
(3) مفاهيم نقدية، ص306.
(4) آفاق الأدب المقارن، ص110.

الثـاني للرابطـة العالميـة لـلأدب المقـارن فـي سـبتمبر 1958م، عـن (أزمـــــــــــــــــــــــــــــــــة الأدب المقـارن) [1] وبـين إشـكالات المـصطلح، وطالـب بإعـادة النظـر فـي مفاهيمه ومجالاته.

فلا يبدو أن رينيه ويليك ينطلق من موقف شخصي، وذلك لأن الآراء التـي طرحهـا يمكـن ربطهـا بنـسق ثقـافي تطلـب ظهـور مفـاهيم جديـدة لـلأدب المقـارن ، فقـد شـهد رينيـه ويليـك وعـدد مـن المقـارنين والنقـاد فـي أمريكـا فـي مطلـع القـرن العـشرين عـدداً مـن المتغيـرات الفكريــة والفلـسفية،أدت إلــى تكـوين نـسق ثقـافي ، يـرفض التاريخيـة القوميــة والاجتماعيــة ، فتركيبــة المجتمــع الأمريكــي المكــون مــن عرقيـات وقوميـات متعـددة،يجعل مـن التعـصب للجنس أوللقوميـة الأم نوعـا مـن العبـث ، كمـا أن حداثـة تـاريخ هـذه الدولـة مقارنـة بتـاريخ القوميــة الفرنـسية يجعـل الحاضـر يحتـل أهميــة أكبـر مــن الماضــي التــاريخي ، إضــافة إلــى أن المجتمــع الأمريكــي قــائم علــى النظــام الرأسمالي الذي يعطي الامكانات الانسانية الفردية سلطة تفوق سلطة المجتمع ، و سلطة القومية .

وقد بدأالنفور من التوجه التاريخي في تناول العلوم والآداب في انجلتـرا وأمريكـا منـذ مطلـع القـرن العـشرين بفعـل تـأثير الحركـة

([1]) مفاهيم نقدية ، ص362.

الإنسانية الجديدة[1] التي نبذت التعصب للقومية أو الجنس لما نتج عن هذا التعصب من حروب ، و ما أدى إليه من مبالغة في تقدير دور الوراثة أو الجنس في تحديد نمط التفكير والابداع ، وما تطلبه هذا الاعتقاد من ولع بالبحث التاريخي عن أصول المؤلفين ، وعن بيئآتهم

وقد لاقت أفكار هذه الحركة رواجا لدى عدد من الباحثين في أمريكا ، لأن هذا النسق الثقافي أوجد مخرجا مهما للولايات المتحدة الأمريكية من إشكالية الأصول القومية المتعددة للشعب الأمريكي،الذي عانى من الحروب القائمة على التمييز العنصري ، إضافة إلى ما أحدثته الحرب العالمية الأولى من أثر جعل كثيراً من الفلاسفة، والمفكرين والأدباء والنقاد ينبذون التعصب لقومية ،أو عرق ، ونستشف أثر هذا التوجه الإنساني في الأدب والدراسات الأدبية ، ومنها الأدب المقارن ، من خلال قول رينيه ويليك عن كتاب المؤلف الأمريكي أرفنج بابيت: «وكان كتاب بابت المعنون الأدب والكلية الأمريكية، قد نشر أصلاً في عام 1908م، لكنه لا يزال واحداً من أقوى الهجمات على القرن التاسع عشر الذي كان بابت آنذاك يربطه بالفذلكة الألمانية المؤذية.وقد تنبأ بأن الأدب المقارن سيكون من أتفه المواضيع، إن لم يخضع للمعايير الإنسانية، ولا تعد تسمية هاري ليفن، أستاذ كرسي أرفنج بابت للأدب المقارن، تكريماً لارفنج

(1) نفسه 345- 346.

بابـت فقـط، بـل ضـماناً لاسـتمرار المعـايير الإنـسانية فـي جامعـة هارفارد»[1].

وأدى هذا التوجه الرافض للتمحور حول التـاريخ الاجتمـاعي أو القومي فـي تنـاول الأدب، إلـى ثـورة عدد من النقـاد الأمـريكيين ومـن بينهم رينيه ويليك وجماعة النقد الجديد علـى المعـايير الأكاديميـة التـي تهتم بالعوامل التاريخية أكثر من اهتمامها بـالنص الأدبـي وجمالياتـه ، ووجدوا في أفكار الشكلانيين الروس الرافضين للتاريخيـة الاشـتراكية أو الماركسية مايلبي توجههم الأدبي ،وهذا مـا يؤكده رينيـه ويليـك فـي قوله : «عندما عدت إلى براغ عام 1930م انضممت لفترة من الـزمن إلـى حلقة براغ اللغوية، فأطلعت علـى أفكـار الـشكليين الـروس، وكـان رومـان ياكبسن موجـوداً فـي بـراغ آنئـذٍ، وكـان ناقداً لاذعـاً للمنهجيـة المترهلة التي يتبعها التاريخ الأدبي الأكاديمي»[2].

و قد زودت هذه الحلقـة الدارسين الأمـريكيين بمنهجيـة جديـدة، مضادة للتيار التـاريخي القديم، فـاتجهوا إلـى التركيـز علـى النـصوص الأدبيـة، ممـا أدى إلـى نـشوب صـراع بـين النقـد الأدبـي، والتـاريخ الأدبـي ، كـان لـه أثـر فـي حـدوث تغييـر عميـق فـي المؤسـسات الأكاديمية وغيرها[3].

---

(1) نفسه ، ص345.
(2) مفاهيم نقدية، ص346.
(3) نفسه ، ص348.

ومن هنا ندرك أبعاد ثورة رينيه ويليك على المفهوم القومي التاريخي للأدب المقارن ، فقد رأى ويليك في الإصرار على المفهوم القديم للأدب المقارن تحدياً لهذه التطورات التي حدثت في أمريكا ، يقول ملخصاً خلفيات معارضته للمفهوم الفرنسي: «وتعكس الثورة ضد الوضعية التي وصفتها في أول محاضرة عامة لي، ألقيتها في ييل في شباط 1946م، تلك الثورة التي تمثلت في كروتشه وتاريخ الأفكار الألماني، وفي الشكليين الروس، وفي الإنسانية الجديدة عند الأمريكيين، وت.س.إليوت، وف.ر.ليفس، والنقاد الجدد.ولذلك شعرت عندما أعاد المستر فريدرخ، في أول كتاب سنوي للأدب المقارن والأدب العام 1952م، نشر المقدمة الموجزة التي كتبها جان ماري كاريه لكتاب الأدب المقارن 1951م الذي ألفه م.ف.غيار، أن ذلك بمثابة التحدي لكل ما تحقق في هذا البلد، إذ أن كاريه وهو أول رئيس للرابطة العالمية للأدب المقارن، يعيد في هذه المقدمة التعبير عن المفهوم القديم للدراسة الأدبية وللأدب المقارن على وجه الخصوص، وبأضيق ما يمكن من مصطلحات: الأدب المقارن جزء من التاريخ الأدبي يهتم بالصلات الحقيقية بين الأعمال وحيوات الكتاب الذين ينتمون إلى آداب متعددة، ويستبعد كاريه في هذه المقدمة ـ على الأقل

ـ الأدب العام من موضوع دراستنا، ويستنكر كل مقارنة لا تدعمها الصلات المجسدة باعتبارها تمرينات بلاغية»[1].

و يرفض الدافع القومي في دراسات التأثير؛ لأنه في رأيه يهدف إلى «تنمية مدخرات أمة الباحث، عن طريق إثبات أكبر عدد ممكن من التأثيرات التي أثرتها أمة على الشعوب الأخرى، أو عن طريق إثبات أن أمة الكاتب قد هضمت أعمال أحد العظماء الغرباء، وفهمته أكثر من أي أمة أخرى»[2].

وهذا الرفض للدافع القومي ، لايعني أن ويليك ومن معه يدعون الى الانسلاخ عن الهوية القومية ،بل لأنهم وجدوا المفهوم الإنساني أكثر انسجاماً مع متغيرات العصر وطبيعة الأدب، وهذا ما يشير إليه ويليك في قوله: «ونحن هنا في أمريكا قد نحقق في نظرتنا نحو أوروبا ككل نوعاً من الاستقلالية، رغم أننا قد ندفع ثمن الانقطاع عن الجذور والغربة الروحية،.ولكننا بمجرد أن ننظر إلى الأدب لا كجزء من معركة الحصول على مزايا ثقافية، أو كسلعة من سلع التجارة الخارجية، أو كدليل السيلوكوجية الوطنية، سنحصل على الموضوعية الصحيحة الوحيدة المتاحة للإنسان...وما أن ندرك طبيعة الفن والشعر وانتصاره على ما يعتري الإنسان من زوال، وعلى ما ينتظره من مصير، وخلقه لعالم جديد من صنع الخيال، حتى تختفي

(1) نفسه ،ص 349 .
(2) مفاهيم نقدية، ص398 .

الأباطيل القومية، ويظهر الإنسان بعموميته، الإنسان في كل مكان، وكل زمان، وبكل تنوعاته)»[1].

فالتركيز على العلاقات الثنائية القومية يفقد الأدب المقارن أهميته ــ في رأي رينيه ويليك ــ ويجعله يندرج تحت تاريخ الأدب، فينصرف جهد الباحث إلى عوامل التأثير، والبحث عن الوثائق التاريخية، التي تثبت التأثير، دون الاهتمام بالنص الأدبي، مما يؤدي ــ مثلاً ــ إلى عدم اختلاف دراسة أثر بيرون في إنكلترا، عن دراسة أثره في فرنسا[2].

ويرفض شرط اختلاف اللغة بين الأدبين المراد مقارنتهما ، لأن هنالك عدد من الآداب القومية- كمايقول - لغتها واحدة، مع اختلاف ثقافتها، وبعدها المكاني، ومنها مثلاً الأدب البريطاني والأدب الأمريكي وغيرها فالمدرسة الفرنسية تعدهما أدباً واحداً، بذلك يندرج الأدب في الولايات المتحدة الأمريكية ضمن الأدب في بريطانيا، وهذا نوع من التعسف فعلينا «أن نقر بأن الآداب في لغة واحدة، هي آداب قومية متميزة، كما هي الحال بين الأدبين الأمريكي ولاير لندي»[3]، وإلا سيؤدي ذلك إلى تجاهل كثير من الآداب القومية، مثل الأدب البلجيكي والأدب السويسري والنمساوي[4] ويريد ويليك من وراء هذا

(1) نفسه ، ص374.
(2) مفاهيم نقدية ، ص316.
(3) نظرية الأدب ، ص66.
(4) نفسه ، ص66.

الرفض الكشف عن الخلل الذي وقع فيه ،اتباع الاتجاه الفرنسي ، بسبب التعصب للغتهم والقوميتهم .

و من منطلق إنساني يطالب بأن يتسع مفهوم الأدب المقارن ليشمل دراسة التأثير والتشابهات بين عدد من الآداب ، وعدم الفصل بين الأدب المقارن والأدب العام فالاتجاه الفرنسي جعل الأدب المقارن مختصاً بدراسة التأثير بين أدبين قوميين، وجعل الأدب العام مختصا بدراسة التأثيرات والتشابهات بين عدد من الآداب القومية، حيث يرى ويليك في هذا الفصل نوعا من التعسف الذي لا معنى له ؛ فالآداب القومية، ليست معزولة عن بعضها لأن هنالك كثيرا من السمات التي تجمع بين الآداب الأوربية، والأدب في الولايات المتحدة، وروسيا، وأمريكا اللاتينية[1].في إشارة إلى أن إثبات هذه الصلات تاريخيا لم يعد ضروريا .

ويضع رينيه ويليك حلا لهذه الأزمة، منطلقا من الخلفيات التي ذكرناها سابقا والتي أفرزت التوجه نحو النص في الدراسات الأدبية ومنها الأدب المقارن ،بوصفه عملا انسانيا جماليا لا يهمنا جنسية مؤلفه أو ظروفه الاجتماعية ، فيرى ويليك أن يتم التركيز في الأدب المقارن على الأدب، وجمالياته لا على العوامل الخارجية، وهذا هو

(1) نفسه ، ص62.

التوجه العام لاصحاب مدرسة النقد الجديد[1] في أمريكا ، يقول: «إن البحث الأدبي هذه الأيام يحتاج بالدرجة الأولى إلى أن يعرف ماذا يدرس، وعلى ماذا يركز، إذ يجب فصله عن دراسة تاريخ الأفكار، أو عن المفاهيم والعواطف الدينية والسياسية، التي غالباً ما يقال أنها بدائل الدراسة الأدبية، فالكثيرون من أبرز الباحثين في الأدب وخاصة في الأدب المقارن لا يهتمون في الواقع بالأدب على الإطلاق، بل بتاريخ الرأي العام وبأقوال الرحالة، وبالأفكار الشائعة عن الشخصية الوطنية... لكن البحث الأدبي لن يحرز أي تقدم من الناحية المنهجية، إلا إذا قرر أن يدرس الأدب كموضوع متميز من غيره من نشاطات الإنسان ومنتجاته»[2].

وإذا كان رينيه ويليك قد وضع أسس الاتجاه الأمريكي في الأدب المقارن فإن ريماك H.H. Remak قد عمل على صياغة هذه الأسس وإخراجها في قالب منهجي منسق[3]، وذلك في مقالته (الأدب المقارن مفهومه ووظيفته) التي نشرت سنة 1961م (Comparative Literature, its definition and function)، يتسع لديه مفهوم الأدب المقارن ليشمل دراسة الأدب مقارنة بالعلوم والفنون الأخرى، فهو يعرف الأدب المقارن بقوله: «هو دراسة

(1) لمزيد من التفصيل حول الادب المقارن والنقد الجديد في امريكا ، ينظر: الأدب المقارن والاتجاهات النقدية الحديثة ، ص 288-291.
(2) مفاهيم نقدية ، ص372.
(3) لمزيد من التفصيل حول دور ريماك في الاتجاه الأمريكي، ينظر: آفاق الأدب المقارن ، ص50 -57.

الأدب بحيث تتعدى القطر الواحد، ودراسة العلاقات القائمة بين الأدب من ناحية وبين مجالي المعرفة والمعتقدات الأخرى كالفنون، والفلسفة، والتاريخ، والعلوم الاجتماعية، والعلوم البحتية، والأديان... الخ من الناحية الأخرى»[1].

ومن هذا التعريف نستطيع أن نحدد ملامح الاتجاه الأمريكي ونلخص ما طرحناه سابقاً من خلال تحليل ، مضمونه :

- ففي قوله (دراسة الأدب بحيث تتعدى القطر الواحد) يلخص ما طرحه رينيه ويليك من آراء، وليتجاوز معظم الهفوات التي ظهرت في الاتجاه الفرنسي، وليتلاءم المفهوم الجديد مع المتغيرات، والمطالب الملحة لدى المؤيدين لهذا الاتجاه، فقد أستبعد من التعريف الإشارة إلى دراسة التأثير، أو دراسة العلاقات، ولم يذكر القومية أو اللغة، وإنما ذكر (دراسة الأدب) ليتم التركيز على النصوص الأدبية لا على دراسة العوامل الخارجية، كالمصادر والوثائق والظروف الاجتماعية ،كما أن دراسة الأدب خارج القطر الواحد تشمل دراسة التأثيرو دراسة التشابهات بين عدد غير محدد من الآداب، بحيث تتعدى (القطر الواحد)، بينما كانت الدراسة المقارنة في الاتجاه الفرنسي تهتم بدراسة التأثير بين أدبين

(1) مفاهيم نقدية ، ص317 .

قوميين في الغالب، وبهذا تتسع المقارنات لتشمل كل دراسة لا تكتفي بأدب قومي واحد سواء أكانت هذه الدراسة تتناول التأثير أم تدرس التشابهات، ضمن آداب قومية لغتها واحدة أم تنتمي للغات مختلفة.

- (دراسة العلاقات القائمة بين الأدب من ناحية وبين مجالي المعرفة والمعتقدات الأخرى)، وفي هذا الجزء من التعريف، يضيف إلى الأدب المقارن مجالاً جديداً، لم يكن موجوداً في الاتجاه الفرنسي، وبهذا تصبح دراسة الأدب مقارنة مع الرسم أو النحث أو فن او علم آخر، ضمن الدراسات الأدبية المقارنة، فالمهم أن يصبح النص الأدبي محوراً للمقارنة، فالهدف عندهم هو الكشف عن جماليات النص الأدبي، ومن هنا نلاحظ اختفاء الإشارة إلى المؤلف أو الاتجاهات أو عوامل التأثير.

وبهذا يتضح تأثير النسق الثقافي الإنساني الرافض للتاريخية الوضعية والحتمية التاريخية في ظهور هذا الاتجاه فقد مثل هذا السياق مخرجاً كما يبدو ـ من طغيان التوجه التاريخي في القرن التاسع عشر، فظهرهذا مركزا على النصوص الأدبية بوصفها نتاجا جماليا إنسانيا، ولذا أتجه الأدب المقارن إلى الاهتمام بدراسة جماليات الآداب ، ولم يعد هدفه

إكمـال كتابـة تـاريخ الأدب القـومي، أو إثبـات مـدى إسـهام قوميـة فـي آداب قوميات أخرى، أو إثبات أن تشابه الظروف الاجتماعية يؤدي إلـى تشابه الآداب القوميـة، بـل أصـبحت مقارنـة جماليـات النصوص الأدبية بين عدد من الآداب هي محور اهتمامات أصحاب هذا الاتجاه، فالعمل الأدبي عندهم مثل اللوحة الفنية لا تسأل عن أصول مبدعها أو قوميته.

ولكـن هـذا لا يعنـي أن المفهـوم الأمريكـي ظـل اسـتجابة لواقـع وثقافة الولايـات المتحـدث، وإنمـا وجـد أنصـاراً ومؤيـدين فـي مختلـف أنحاء العالم ، حتى في فرنسا نفسها.

الأدب المقارن وسلطة الوعي الفردي (الاتجاه الألماني) :

تـأخر ظهـور مـصطلح الأدب المقـارن فـي ألمانيـا إلـى عـام 1854م، فقد كان أول ظهور لهذا المصطلح في كتاب (جوهر الشعر وشكله) كورتس كاريير وذلك لأن هذا المصطلح كما هو الحال في الإنجليزيـة ــ لـم يجـد قبـولا للانـدماج فـي الدراسـات الأدبيـة، فهـو لا يحمل مدلول الدراسة الأدبية[1].

(1) ينظر: مفاهيم نقدية ، ص312.

ومع هذا فقد كان للرومانسيين الألمان دور في الاهتمام بالأدب العالمي منذ أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر، وكان لهذا الاهتمام دور في نشأة الأدب المقارن فيما بعد.

فقد حمل كتاب لاوكون laokoon للأديب الألماني، لسنج سنة 1766م، توجهاً عالمياً في نظرته إلى العلاقات بين الشعر والرسم، كما ذهب هيردر 1744– 1803م إلى أن التاريخ الأدبي يظهر لنا أصل الأدب، ونموه، وتغيراته، وأساليبه المختلفة وأن الآداب القومية تشكل فيه كل على حدة العينات الأساسية، وأشار في كتابه مقطوعات حول الأدب الألماني الحديث 1767م إلى أن الشعر الألماني يجمع بين الألمان وعدة قوميات أخرى(1)، مما يوحي باتساع نظرة هذا الباحث وتجاوزها لدائرة الأدب القومي الضيقة، قبل ظهور مصطلح الأدب المقارن .

وقد تطورت هذه الفكرة لدى الأخوين شليغل، لما تحمله روحهما الرومانسية من تطلع إلى إبراز الجانب العاطفي الذاتي أو الفردي في الآداب، وذلك بهدف وضع تاريخ أدب عالمي يضم العصور القديمة والحديثة، فقام أوغست ويلهلم شليغل منذ 1804م، بتوجيه أنظار الألمان إلى شكسبير والشعر الإيطالي والأسباني

(1) مفاهيم نقدية ، ص324.

والبرتغـالي، وقـام فريـدريك شـليغل بإعطـاء نظـرة واسـعة لـلأدب العالمي، في محاضراته في جامعة فينا عام 1812م[1].

وأطلـق غوتـه الأديـب الرومانـسي الألمـاني مـصطلح الأدب العالمي World literature مشيراً إلى أن الآداب العالمية ستقترب مـن بعضها لتكـون أدبـاً عالميـاً متقاربـاً فـي سماته الفنيـة وروائعـه الأدبيـة، وهـذا التوجـه نحـو العالميـة ـ كمـا يبـدو – نـاتج عـن تركيـز الرومانسيين علـى البعـد العـاطفي أو الـذاتي فـي الادب ، فالرومانـسية ترى أن جوهر الأدب في أي زمان ومكان يتمثل في كونه تعبيراً عن العاطفة والإحساس الفردي .

إن هذه الرؤية تتجاوز العلاقات الثنائية القومية إلى العالمية ، ولذا تأخر الاهتمام بمصطلح الأدب المقارن ، فلم يتم إنشاء كراسي لـلأدب المقارن في الجامعات الألمانية إلا في العشرينات من القرن العشرين ، وكان لهذه الخلفيات ، أثرها في توجيه الدراسات المقارنة ، حيث اهتمت بالمقارنة بين اللغات الرومانسية وآدابها ، وسعت إلى إرساء الأدب العالمي[2].

وقد ظهرت متغيرات ثقافية منذ مطلع القرن العشرين كانت سبباً فـي ظهور الظاهراتيـة أو الفينومينولوجيا والتـي كمـا يبدو وجد فيها الألمان توسيعاً لمفهوم الذاتية الرومانسية وتطويراً لـه وتجاوزاً

(1) مبادئ علم الأدب المقارن ، ص28.
2 نظرية المقارنة ، ص106.

للانساق الثقافية التي تخضع الذات للموضوع، ، فتشكل نسق ثقافي يؤكد حضور الذات في صياغة وتشكيل العالم الخارجي وفق رؤيتها ، فالمعرفة " الحقيقية للعالم لا تأتي بمحاولة تحليل الأشياء كما هي خارج الذات (نومينا Noumena) وإنما بتحليل الذات نفسها، وهي تقوم بالتعرف على العالم، أي بتحليل الوعي وقد استبطن الأشياء فتحولت إلى ظواهر (فينومينا Phenomena)، ذلك أن الوعي لا يكون مستقلاً، وإنما هو دائماً وعي بشيء ما»[1].

فالذات هي التي تحدد الموضوع، ولا وجود للظواهر إلا بذات تدركها، ومن هنا ظهر مفهوم القصدية، الذي يرى أصحابه أن المعنى لا يتكون من خلال التجربة والمعطيات السابقة ، وإنما يتكون من خلال فهم الذات وشعورها ناحية هذا المعنى، فالبناء المعرفي يقوم في هذا النسق على الإدراك الذاتي للظواهر[2].

وقد أدى هذا التوجه إلى ازدهار علم التأويل أو الهيرمنيوطيقا ، لأن الفهم – في رأيهم - لا يتم إلا في ظل عملية تأويلية «فالقارئ يأتي إلى النص ولديه فهم مسبق، تأسس وتكوَّن نتيجة آفاقه الشخصية والزمانية الخاصة»[3].

---

1 دليل الناقد الأدبي ، ميجان الرويلي وسعد البازغي ، المركز الثقافي العربي ، ط2 ، الدر البيضاء 2000، ص94.

(2) لمزيد من التفصيل ، ينظر: الفلسفة الألمانية الحديثة بونير ،ترجمة ،فؤاد كامل، دار الشؤون الثقافية، بغداد 1986.

(3) دليل الناقد الأدبي، ص52.(8)لمزيد من التفصيل ينظر :الفلسفة الأمانية الحديثة ،بوفير،ترجمةفؤاد كامل ،ص85ومبعدها.

وفي ظل هذا النسق الثقافي تغيرت النظرة إلى علم التاريخ، فلم يعد وضعياً كما هو الحال عند علماء التاريخ الأوربيين في القرن الثامن عشر والتاسع عشر، ولم يعد حتمياً كما كان لدى الماركسية ،وإنما أصبح الفرد يسهم في صناعة التاريخ ،من خلال تفاعله مع تلك الاحداث ،فلا وجود للتاريخ دون وعي الكائن أو تلقيه للأحداث وفق ثقافته الراهنة (8).

هذا الوعي بدور الذات الفردية في صياغة العالم الخارجي كان له تأثير في نظرية الأدب، ومناهج النقد الأدبي، والأدب المقارن، وتبلور هذا الأثر في ما يسمى بنظرية التلقي التي تجاوزت المناهج التاريخية أو الخارجية التي تركز على دراسة الأدب من الخارج، وتجاوزت كذلك الشكلانية وما جاء بعدها من مناهج تتعامل مع النص على أنه نتاج مغلق ومعزول عن خارجه، فقد اتجه أصحاب هذا النسق إلى التركيز على المتلقي؛ لأنه في رأيهم يسهم من خلال قراءته في إبداع أو خلق النص الأدبي، ففهم النص الأدبي يتعدد بتعدد ثقافة قرائه، ولا معنى لوجود النص الأدبي إذا لم يصل إلى متلقٍ، وهذا شيء طبيعي في ظل نسق ثقافي لا يعترف بالظواهر والنصوص إلا من خلال الذات الواعية، ومن هنا يصبح للمتلقي دور مهم في الإبداع الأدبي.

فنجد لدى روبرت ياوس، محاولة لإعادة النظر إلى تاريخ الأدب والنقد الأدبي، حيث قدم خلال دراساته ومحاضراته نظرة جديدة إلى وظيفة تاريخ الأدب والنقد الأدبي، منطلقا من دور المتلقي في صياغة التاريخ الأدبي والكشف عن جماليات الأنواع الأدبية [1].

و تحت تأثير هذا النسق تمت مراجعة بعض مفاهيم الأدب المقارن ، فبدلاً من التركيز على المؤثر والنظر إليه على أنه مصدر إشعاع، تم التركيز في هذا الاتجاه على المتأثر ، لأنه يتلقى النص المؤثر وفق تصوراته وثقافته الفردية ، ولا شك في أن دراسة التأثر بهذا المفهوم الجديد تكسب الأدب المقارن نوعاً من الثراء، فالمتأثر أو المتلقي هو الذي يندفع إلى قراءة الأدب المؤثر ويفهمه وفق رؤية خاصة ينتج من خلالها عملاً إبداعياً جديداً، وليس نسخة مكررة للعمل المؤثر، ويختلف تأثير عمل أدبي ما باختلاف ثقافة المتلقين، فلم تعد دراسات التأثيروالتأثر تصل إلى النتيجة نفسها ، ولم يعد المؤثر صاحب فضل على المتأثر، أو يفوقه ابداعا ، كما يقول أولريش فايسشتاين في كتابه مدخل إلى علم الأدب المقارن 1968م عندما فرق بين التأثير Influence والتقليد Ideations : " ونحن إذ نبحث في هذه المشكلة بحثاً منظماً ننبه إلى أن عالم الأدب المقارن لا يفرق تفرقة تقييمية بين العامل المرسل والعامل المتلقي في عملية التأثير ،

1 ينظر :جمالية التلقي :من أجل تأويل جديد للنص الأدبي ، ص 21ومابعدها.

فليس مما يمس الكرامة أن يتلقى المؤلف شيئاً ، كما أنه ليس ما يستحق المدح أن يرسل مؤلف ما تأثيراً...كذا ينبغي أن نصدر في بحوثنا من منطلق سيكلوجي يتمثل في أن المرسل لا يلعب هذا الدور عامداً وأن المتلقي لا يعي علاقة التبعية التي يدخل فيها إلا نادراً" [1].

وتصبح في هذه النظرة الجديدة دراسة دور المؤثر خارج اهتمامات الناقد المقارن كما يقول فايسشتاين " وعلينا أن نلاحظ علاوة على ذلك في معالجتنا النظرية للمشكلة أنه سيقل اهتمامنا نسبياً بالمرسل ؛ لأن معالجة إسهامه في عملية التأثر يدخل في إطار آخر هو إطار تاريخ نشاط المؤلف " [2].

وقد أخذ على الاتجاه الفرنسي عدم تحديد أصحابه للفرق بين التأثير والتقليد ، وتجاهلهم لمستويات التأثير، ويرد الفرق بين التأثير والتقليد إلى الحالات الفردية للتلقي فالتأثر تقليد لا شعوري و التقليد تأثر شعوري[3]، وبهذا يصبح المتلقي هو الركيزة التي من خلالها ندرس التأثر والتأثير ، فبعد أن كان الاتجاه الفرنسي القديم يهتم بدور المصدر المؤثر ويتبع هذا الدور تاريخياً لإثبات هذا الحق والفضل في إطار كتابه تاريخ الآداب القومية، وبعد تركيز الاتجاه الماركسي على دور العوامل والظروف الاجتماعية في تشابه الآداب أو تأثيراتها

---

1 التأثير والتقليد ، أولريش فايسشاتاين ، ترجمة مصطفى ماهر، مجلة فصول ، م3،ع3، إبريل ــ يوليو 1983م ، ص190.
2 التأثير والنقد ، المرجع السابق ، ص19.
3 نفسه ، ص21.

المتبادلة من أجل إثبات صواب النظرة الماركسية إلى الأدب، و بعد إهمال الاتجاه الأمريكي للعوامل التاريخية وتركيزه على النصوص الأدبية وجمالياتها معزولة عن الخارج ، بعد هذا كله يتجه اهتمام الأديب المقارن لدى الاتجاه الألماني إلى الحلقة الثالثة من العمل الأدبي المتثلة بفردية المتلقي أو التأثر فيتم التركيز على دوره في فهم النصوص الأجنبية، وكيف اختلف تلقي هذه النصوص خارج أدبها القومي باختلاف ثقافة المتلقين.

وبهذا اختلفت اهتمامات وميادين الأدب المقارن في ظل هذه الاتجاه فإلى جانب اهتمام فايسشتاين بالتفريق بين التأثير والتقليد نجد أيضاً أن عناوين فصول كتابه الأخرى تركز على التلقي وما يتصل به ومن ذلك على سبيل المثال الفصل الثالث الذي يحمل عنوان (الاستقبال والبقاء) والفصل الرابع بعنوان العصر ، الوحدة ، الأجيال، الحركة [1].

وفي كتاب (علم الأدب المقارن) تحرير ما نفرد تمبلنغ وآخرون الذي صدر في ألمانيا سنة 1981م نجد عناوين مثل: بحث التأثير والتلقي (أو الاستقبال) من بحث التأثير إلى بحث التلقي (الاستقبال)، حدود و إمكانات الانعكاس الأيجابي، أشكال وطرق التلقي أوالاستقبال السلعي الإنتاجي ، ، تحليل وتقويم الترجمة الأدبية،

---

1 ينظر: مقدمة في نظرية المقارنة ، ص108.

نظريـة الترجمـة ، الترجمـة وسيلة ايصـال فـي حركـة الأدب العالميـة [1].

فالاهتمـام بدراسـة التلقـي الأدبـي لـلآداب الأجنبيـة ، و الترجمـة ودورها في تحديد أنواع التلقي، واختلاف تلقي الآداب باختلاف ثقافة المتلقـين واتجاهـاتهم وحقبهم التاريخيـة، هـي الميـادين المميـزة لهـذا الاتجاه، وحـل مصطلح التلقـي أوالاستقبال، محـل مصطلح التـأثير أو التأثر لما يحمله مصطلح التـأثير من تركيـز علـى دور المـؤثر والرفـع من شأنه وما يحمله مصطلح التـأثر من دلالـة علـى الدونيـة أو الـدور السلبي.

وإذا كـان أحـد الدارسـين يـرى فـي جماليـة التلقـي طريقـاً ثالثـاً يتوسط بين الماركسية التي ترى في الأدب انعكاسا للواقـع الاجتمـاعي والشكلانية التي ترى أن النص الأدبي منظومات مغلقة [2]، فإننا نـرى أيـضاً أن الاتجـاه المقـارن المرتكـز علـى الـوعي الفـردي كـان محاولـة للخـروج من تركيز الاتجاه الفرنسي والاتجاه الماركسي علـى العوامـل الخـارجية وتعصب الاتجاه الأمريكـي فـي المقابـل للنصـوص الأدبيـة ، حيـث ينظر أصـحاب هـذا الاتجـاه إلــى الـنص وجمالياتـه والعوامـل الاجتماعيـة والتاريخيـة والبيئيـة ودورهـا فـي الأدب مـن خـلال وعـي المتلقي أو المستقبل أو المتأثر ،وثقافته الفرية .

1 لمزيد من التفصيل حول محتوى هذا الكتاب، ينظر: المرجع السابق ، ص110ـ 116.
2 الأدب العام المقارن، دانييل هنري ، ص120.

الأدب المقارن و سلطة الوعي النهضوي (محاولة لتحديد ملامح اتجاه عربي):

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ظهرت في الوطن العربي محاولات ، يمكن إدخالها ضمن البدايات الأولى للأدب المقارن ، وقد تزامنت هذه المحاولات مع بدايات النهضة العربية ، وارتبطت بمرحلة الإيقاظ في جميع مجالات الحياة ومنها الأدب ، وما يؤكد هذا أن رواد النهضة العربية هم أصحاب البدايات الأولى للأدب المقارن في الوطن العربي، وسنرى أن التفكير النهضوي لدى أدبائنا ونقادنا في تلك المرحلة والمراحل اللاحقة ، سيترك أثرا واضحا في توجيه الدراسات المقارنة للإسهام في تحقيق نهضة أدبية من خلال الانفتاح على الآداب الأخرى، والإفادة من جوانبها الايجابية ، ولذا كانت البدايات الأولى تركزعلى دراسة التشابه والاختلاف ؛ فاكتفاء الرواد في هذه المرحلة – كما هو الحال في الاتجاه الفرنسي – بدراسة التأثير والتأثر ، من منطلق اثبات فضل أدب قومي على أدب قومي آخر لا يلبي متطلبات سياقهم الثقافي ، مما دفعهم الى عدم الألتزام بماوضعه المقارن الفرنسي ،فقد درس المقارنون العرب في تلك المرحلة التشابهات والأختلافات بين الأدب العربي والآداب الغربية الحديثة ، قبل ظهور الاتجاه الامريكي ، و كيفوا دراسة التأثير والتأثر لتتلاءم مع التوجه النهضوي في الوطن العربي .

و من هنا يظهر لنا تعسف المقارنين المعاصرين الذين لم يدخلوا دراسة التشابهات لدى الرواد ضمن الادب المقارن ، بحجة عدم التزامها بمبادئ الاتجاه الفرنسي ، ويظهر لنا أيضا مبالغة الذين عدوا هذه المقالات سبقا للاتجاه الأمريكي للاعلاء من شأن أصحابها ، مما يدل على أن تقييم هذه الجهود تم في الغالب من خلال متطلبات الاتجاهات الواردة ، دون النظر إلى احتياجات المرحلة العربية وخلفياتها .

فمن المعروف أن رواد النهضة العربية بمختلف مجالاتها ، كانوا يطمحون إلى الخروج العزلة التي فرضتها عصور الانحطاط ، وما نتج عنها من جمود في المجالات الثقافية المختلفة عن طريق الانفتاح على العالم والافادة مماتوصلت اليه من تطور في المجالات المختلفة ومنها الأدب والنقد ، و من الطبيعي أن يتجه أدباء وكتاب عصر النهضة في الوطن العربي ودعاة التجديد إلى تعريف القراء بجوانب من نهضة الآداب الأخرى ،من خلال اجراء مقارنات التشابه والتوازي ، بهدف الإسهام في تطور الأدب العربي الحديث ونقده.

ومن هذا المنطلق نستطيع أن ندرك أبعاد اهتمام رفاعة الطهطاوي في كتابه تخليص الإبريز في تلخيص باريز 1285هـ ، وعلي مبارك في كتابه " علم الدين " بمقارنة جوانب من التشابه والاختلاف بين

بعض مظ الثقافة العربية بجوانب من الحضارة الغربية [1] ، وكذلك المقارنات والاشارات المتفرقة لرواد آخرين ، مثل : أديب إسحاق وأحمد فارس الشدياق ، ويعقوب صروف وجبر ضومط [2] - التي يمكن إدخالها ضمن البدايات الأولى للأدب المقارن - فهذه الجهود جميعها تنطلق من نزعة نهضوية تنويرية .

فقد كتب يعقوب صروف مقالة بعنوان (الانتقاد) عام 1887 ، تناول فيها واقع النقد العربي وما يعانيه من تخلف والنقد الإفرنجي وما وصل اليه من تطور ،دون الاهتمام بدراسة التأثير أو التأثر ، مشيرا إلى عدد من النقاد المشهورين في الغرب ،انطلاقا من حرصه على أن يتعرف القارئ العربي على أنماط جديدة في النقد [3] .

وتظهر بعد ذلك مقالات تدل عناوينها على توجه أصحابها الى المقارنة ، ولكنها مع هذا اكتفت بدراسة التوازي أو التشابه والاختلاف بين الأدب العربي والأدب الغربي ، و من أوائل هذه المقالات مقالة كتبها نجيب الحداد ، ونشرت ، في المقتطف سنة 1897م بعنوان (مقابلة بين الشعر العربي والشعر الإفرنجي) ، ويظهر التوجه النهضوي لهذه المقارنة من قول الكاتب ، عن دوافع كتابة هذه المقالة : " وقد سألني من لا يسعني مخالفته أن استعين بما

([1]) حول البدايات الأولى لهذا المنهج عند الطهطاوي ، وعلي مبارك ، ينظر : تاريخ الأدب المقارن في مصر ، عطية عامر ، مجلة فصول ، المجلد الثالث ، العدد الرابع ، يوليو ،أغسطس ، سبتمبر ، 1983م ، ص 13–16.

([2]) ينظر : النقد الأدبي الحديث في لبنان ، ج1، ص 214 – 273 ، وآفاق الأدب المقارن ,ص154 .

([3]) الانتقاد ، يعقوب صروف ، المقتطف ، السنة الثانية عشر ، الجزء (3) ديسمبر 1887،ص164.

توصلت إليه من قراءة الشعرين العربي والإفرنجي على وضع مقالة في هذه المجلة الغراء أبين فيها المقابلة بينهما وأتكلم عن الفروق بيننا وبين أهل الغرب في معاني الشعر وأنواع إيراده وأذواق ناظميه وطرائق البيان في مآخذه وإبراز المقاصد منه إلى ما يتصل بذلك من قواعد نظمه اللفظية والمعنوية عند الفريقين ".[1] ، ويتضح من خلال معالجته للموضوع أنه لايريد من خلال هذه المقارنة أن يكشف عن أثر الأدب العربي في الأدب الغربي ،أو العكس ،وإنما هدفه أن يتعرف القارئ على الجوانب الايجابية في نهضة الآداب الافرنجية للإفادة منها في تجاوز مرحلة الجمود التي يعاني منها أدبنا .

ومن هذه المقارنات المعركة التي دارت حول " بلاغة العرب والإفرنج " في المقتطف بين أحمد كامل ، وخليل ثابت والدكتور نقولا فياض سنة 1900م ، و تعكس هذه المقالات الثلاث الصراع الذي كان قائما بين دعاة الأنفتاح على الآداب الغربية ، ودعاة التعصب للأدب العربي ، فقد قارن أحمد كامل بين الأساليب البلاغية العربية و الأساليب البلاغية الإفرنجية ، بغرض إثبات تفوق البلاغة العربية على غيرها ، وذلك من خلال مقارنته بين قصيدة مترجمة لفكتور هوجو Victor Hugo ، ورسالة للسيد البكري ، والاستشهاد

([1]) مقابلة بين الشعر العربي والشعر الأفرنجي ، نجيب الحداد ، البيان ، السنة الأولى الجزء (7) أكتوبر 1897م ، 300 .

ببعض أبيات من الشعر العربي[1] ، وقد حدد منذ البداية أن الكلام البليغ يتركب من ثلاثة أجزاء اللفظ والمعنى والموضوع ، فراح يتابع تفوق البلاغة العربية ، على البلاغة الإفرنجية في هذه الأركان [2] ولا يهتم في ذلك كله بإثبات تأثر شاعر بآخر ، وإنما يهتم ببيان جوانب الاختلاف بين البلاغة العربية والبلاغة الإفرنجية ، لإثبات تفوق الأسلوب العربي على الأسلوب الافرنجي ، وكأنه يريد من خلال هذه المقارنة أن يلمح إلى اكتفاء الأدب العربي وتفوقه وعدم حاجته إلى الافادة من الآداب الأخرى .

وقد حاول كل من خليل ثابت ، و نقولا فياض ، من خلال ردهما على آراء أحمد كامل ،وهما من دعاة التجديد والانفتاح على الآداب الغربية ، أن يكشفا عن خطأ النظرة المبتسرة إلى الآداب الأجنبية ، وأضرار التعصب الذي قد يعمينا عن إدراك واقعنا على حقيقته ، حيث يقول خليل ثابت، في بداية مقالته : " وقد آنست من حضرة الكاتب تحاملاً على الإفرنج رددته إلى غيرة حضرته على آداب اللغة العربية غيرة تحمد منه وإلى قلة علم باللغات الإفرنجية وآدابها " [3] ، ويرى أن ما يعده أحمد كامل تفوقاً للبلاغة العربية ، لا يرجع إلى قصور في الأسلوب عند الإفرنج ، وإنما يرجع إلى

(1) ينظر : بلاغة العرب والإفرنج ، أحمد كامل ، المقتطف،المجلد24 ،الجزء الأول ،يناير 1900 ، ص 38 – 47 .

(2) ينظر : المرجع نفسه ، ص 35-47 .

(3) بلاغة العرب والإفرنج ، خليل أفندي ثابت ، المقتطف، المجلد24 ، الجزء الثالث ، مارس 1900 ، ص213 .

اختلاف الأذواق وقلة معرفتنا بخصائص اللغات الإفرنجية " فقد أَلِفَ الإفرنج من المناظر والخيالات والتشابيه ، ما لم نألفه نحن والعكس بالعكس فلو وقفت في ساحات لندن وباريس ورفعت عقيرتك وتغنيت بالرقمتين ووحذ الإبل وريح الصبا والمسك والعنبر وعقرب الصدغ .. لأصاب السامعين ما أصاب حضرة الأديب من إنكار على الشاعر الفرنسي " رقص السحابة حول القمر " ، لكن الشرقي يرتاح إلى جميع هذه فهو الذوق لا جدال فيه والعادة ليس من ينكر تأثيرها "[1] فمن منطلق الحرص على تأكيد أهمية الانفتاح تناول أثر ثقافة المتلقي في فهم النص الأدبي الأجنبي ، ولا يعني هذا أنه سبق الأتجاه الألماني في الاهتمام بالتلقي ، بقدر مايعني شعوره بخطورة أن يظن الأدباء والنقاد ، أن الأدب العربي قد وصل في عصرالنهضة الى مرحلة الأكتفاء ، ولذا يرد خطأ مأصدره أحمد كامل إلى جهله بخصائص اللغة الفرنسية ، يقول : " ولا أخال العارف باللغتين الفرنسية والعربية يفضل رسالة السيد من حيث رصف ألفاظها وتنميقها على قصيدة فكتورهيكو في الأصل الفرنسي إذ لا تخلو رسالة السيد من ألفاظ ينفر منها السامع ..."[2].

([1]) نفسه ، ص 215
([2])نفسه ، ص 216 .

و يتضح بعد المقارنة التنويري من خلال دعوة الكاتب إلى عدم التعصب ،والافادة منالجوانب الايجابية في الأدبين ، والتوسع في ترجمة الأعمال الأدبية الغربية لنتعرف أكثر على ابداعاتهم ، يقول : "وخير الأمور أن يجمع المرء بين ما لذ وطاب من مقول الفريقين ولا ينقطع لواحد منها ... ولعل هذا البحث يدفع بعض أدبائنا إلى تعريب شيء من بليغ ما كتب الإفرنج كاسيا حلة عربية فيتضح لنا ما عند إخواننا الفرنجة من معجزات البلاغة والإنشاء". (1)

وقد فصل نقولا فياض القول في أثر الترجمة ، في سياق إثبات عدم دقة أحكام أحمد كامل ، فمن الصعب أن ننقل عملا أدبيا إلى لغة أخرى دون أن يفقد شيئاً من جمالياته ، فيقول: " ولهذا ترى كثيراً من القطع المشهورة بعلو طبقتها ، تخسر من بلاغتها في الترجمة ؛ لأن أكثر ما فيها من التشابيه والاستعارات لا يكون ملائماً للسان المترجمة إليه ، ولأن البلاغة ليست في المعاني وحدها بل هناك طرق في التعبير وأساليب في انتقاء الألفاظ ومناحي في التصوير تختلف باختلاف الزمن والمكان والشعوب "(2) ويعطي أمثلة على ما حدث من تشويه في الترجمة العربية لقصيدة فيكتور هجو (3) ،ليثبت من خلال ذلك قصور نظرة أحمد كامل إلى الآداب الأجنبية ،و

(1) نفسه ، ص 217-218 .
(2) بلاغة العرب والإفرنج ، نقولا فياض ، المقتطف، المجلد (24) الجزء الرابع، إبريل ، 1900ص 291 .
(3) نفسه ، ص ، 291 – 292 .

استحسانه لرسالة البكري وتفضيله لها على الرغم من ركاكتها ، ويتخذ من هذا الحديث مدخلا للهجوم على النقاد المتعصبين للتقاليد الفنية القديمة ، الرافضين للانفتاح و التجديد ،مما يدل على انطلاق المقارنة من السياق النهضوي الداعي إلى الإفادة مما لدى الأمم الأخرى ، ولذا فهو يدعو في نهاية مقالته الكاتب العربي إلى نبذ التقليد، وإلى مجاراة الإفرنج في التجديد بما يتلاءم مع متطلبات العصر " فإنا نرى الإفرنج يهربون من التقليد وينزعون إلى الجديد، وكلما أتى عليهم زمن لحق اللغة نصيب من التغير الذي يصيب العادات فترى منهم كل يوم تقربا جديدا من الحقيقة، وبعدا عن الأوهام وزخرف التصنع ونحن لا نزال متبعين سنة التقليد .. والغريب أن أكثر شعرائنا وكتبتنا، لا يريدون تغيير القديم بل لا يقبلون بالجديد فإن سمع الواحد منهم بيتا جديدا أو معنى غريباً قال هذه تصورات إفرنجية كأن فكر العربي قاصر عن الاختراع، وليس له قدرة على الإبداع فإن قلت مثلا حيّت الكواكب هبوط الليل، أو سمع الإنسان صوت ضميره، أنكروا عليك ذلك كأنه لا يجوز للتصور العربي أن يستعمل مثل هذه التحية ولا يحق له أن ينسب إلى الضمير صوتا يتكلم"[1] .

---

(1) نفسه , ص 293-294 .

وهذا النسق دفع سعيد الخوري الشرتوني أيضا _ إلى تناول التشابه والاختلاف بين البيان العربي ، و البيان الإفرنجي ، دون الاهتمام بالتأثير أوالتأثر ،في مقالة تحت عنوان (البيان العربي والبيان الإفرنجي) [1] نشرت عام 1902م ، ، رأى فيها أن البيانين يتشابهان في أن " كليهما يبحث في صور التراكيب من حيث تختلف بها وجوه المعاني ، وليس في كليهما بحث يتعلق بصحة التراكيب وفسادها، بل يترك ذلك كله للنحويين العرب والإفرنج والثاني أن أكبر الأبواب في البيانين واحدة كالتشبيه والمجاز والكناية والتلميح والتكرار "[2] و هذه المقارنة التي يسميها معارضة ليست بهدف الكشف عن تأثيرالبيان العربي أو تأثره بالبيان الافرنجي وإنما لتحديد المحاسن والعيوب في البيانين ، يقول في مطلع هذه المقالة: "هذا ولما كان البيان العربي على علو الشأن بالموضع الذي أومأت إليه ،عَنَّ لي أن أعارض البيان العربي ببيان الإفرنج ،فإنّ المعارضة خير ذريعة إلى إظهار المحاسن وإبداء المعايب ، ومعرفة الراجح من المرجوح والقوي من الضعيف"[3] ، ليصل في نهاية المقالة ، الي النتيجة تكشف عن التوجه النهضوي لهذه المقارنة ، فعلى الرغم من اعجابه بكتب البيان العربي وما حققه التراث العربي في هذا المجال ، فإنه

([1]) البيان العربي والبيان الإفرنجي، سعيد الخوري،المقتطف،الجزء الأول, المجلد السابع والعشرين, يناير1902،ص370-374 .

([2]) نفسه ، ص 371 .

([3]) نفسه ، ص 370 .

يشير إلى ضرورة الإفادة من التطور الحديث في تجديد هذا النوع من الدراسات ، يقول: " إن كتب البيان العربي على جلالة مقام أصحابها وبلاغة عباراتها تحتاج إلى أن يضم إليها فصول في ما يتعلق بمخارج المعاني ومصادرها وبطرق بسطها وتوسيعها وذلك لتظهر للطالب طرق الكتابة وتتبين له أساليبها" (1)

ولأن معظم المقارنين العرب المعاصرين الذين تتبعو نشأة وتطور هذا الحقل لم يهتموا بربط هذه الجهود بسياقها فقد عدوا كتاب روحي الخالدي (تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب وفيكتورهوجو) الذي صدرعام 1904 ، أول محاولة تطبيقية في الأدب المقارن في الوطن العربي ، وذلك لأن المؤلف تناول فيه التأثير والتأثر إلى جانب التشابه والتوازي بين عدد من الآداب ، متجاوزا الدراسات العربية السابقة التي أهتمت بالتشابه والأختلاف فحسب، بل إن عز الدين المناصرة جعل من عدم اكتفاء المؤلف بدراسة التأثير واتساع نظرته لتشمل المقارنة بين اكثر من ادبين ، تطويرا للاتجاه الفرنسي، وسبقا للاتجاهات الحديثة ، يقول عزالدين المناصرة : " إذن نستطيع القول إن كتاب روحي الخالدي _ ومن خلال العنوان وحده _ يطبق المنهج الفرنسي في الأدب المقارن ، الذي ساد منذ 1828وحتى1963 ، بل إن روحي الخالدي يفوقه في

---

(1) نفسه ، ص 374 .

بعض الطروحات مثل : علم "علم الأدب " و "عدة آدب " .فنلاحظ أنه قداختار المقارنة بين عدة آداب حين كان الفرنسيون يروجون للمقارنة بين أدبين فقط . كما اختار "علم الأدب " الأكثر شمولية من الأدب المقارن ليطبقه على منهج المقارنة ،وللعلم فهنالك بلدان كثيرة _ الآن _ تحاول التوفيق بين المنهجين الفرنسي والأمريكي .وتستخدم مصطلح "علم الأدب" في الدراسات المقارنة "[1] . ونحن نتفق معه في أن روحي الخالدي لم يلتزم بمبادئ الاتجاه الفرنسي حرفيا ، لكننا نرى أن يتم النظر إلى هذا الاختلاف من خلال اختلاف الدوافع والمنطلقات بين انصار الاتجاه الفرنسي والمقارن العربي في عصر النهضة ، فمنطلق الفرنسي _ كما ذكرنا _ قومي تاريخي ، يهدف الى تتبع إسهام أدب قومي في تطور أدب قومي آخر ، بينما هدف روحي الخالدي نهضوي يريد من خلال هذه المقارنات أن يتعرف العرب على مجالات جديدة في الأدب ودراسته و على بعض الأعلام الأدبية المشهورة في الغرب ، متخذا فكتور هوجو أنموذجا ، فالمنطلقات النهضوية كانت حاضرة ، لأنه لم يؤلف كتابه كما يبدو بدافع تطوير الادب المقارن ، فقد أعطي في بداية الكتاب نبذة عن حياة فكتور هوجو Victor Hugo [2] ثم عرج على تاريخ الأدب عند العرب

([1]) مقدمة في نظرية المقارنة ، ص 127.
([2]) تاريخ علم الأدب عند الأفرنج والعرب وفيكتور هوكو ،روحي الخالدي ، مطبعة السعادة ،ط1، القاهرة1912 ، ص 5 .

[1] وتناول ما أقتبسه الإفرنج من قواعد الشعر العربي [2] وأثر الشعر الأندلسي في شعر التروبادور [3] واقتباس الإفرنج أقاصيصهم عن العرب [4] ، وخصص جزءا كبيرا من الكتاب لمعالجة اسهامات فكتور هجو ، متحدثا عن قضايا أدبية ونقدية مقارنة بين عدد من الآداب [5] ، ولم يكن يهدف من دراسة تأثير العرب في غيرهم مجرد اثبات فضل العرب ، بقدر طموحه الى أن يقتدي العرب في نهضتم االحديثة بالغرب في الافادة ممالدى الآخرين، وهذا الهدف يتضح من خلال حديث الناشر عن دوافع إعادة نشر محتوى الكتاب الذي كان في الأصل عبارة عن مقالات نشرت في مجلة الهلال ، في تقديم الطبقة الثانية من الكتاب قائلا : " فحملنا ذلك على إعادة طبعه رغبة في نشر علم الأدب بين قراء العربية ، ونحن في أشد الاحتياج إليه ولا سيما على الأسلوب الذي توخاه المؤلف من المقابلة بين الآداب العربية ، والإفرنجية وذكر ما أقتبسه الإفرنج من آدابنا وأساليبنا مما لم يتصد للبحث فيه أحد قبله ولم نر أحداً تصدى له بعده " .[6]

([1]) نفسه ص 9-30 .
([2]) نفسه، ص 102 .
([3]) نفسه ص 104 .
([4]) نفسه ص 108 .
[5]) لمزيد من التفصيل حول موقع هذا الكتاب ودوره في حركة الأدب المقارن في الوطن العربي ، ينظر: مقدمة في نظرية المقارنة ، ص 124 –143 ،وآفاق الأدب المقارن ،ص 167ومابعدها .
([6]) تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب, روحي الخالدي ، مقدمة الناشر .

وفي عام 1904 _ أيضا _ صدرت ترجمة سليمان البستاني لإلياذة هوميروس بعنوان "إلياذة هوميروس معربة نظما وعليها شرح تاريخي أدبي وهي مصدرة بمقدمة في هوميروس وشعره وآداب اليونان والغرب ومذيلة بمعجم عام وفهارس " ، وقد تناول المترجم في المقدمة أوجه التشابه والاختلا ف بين الادب العربي والأدب اليوناني ، مشيرا الى قلة المنظومات القصصية في الشعرالعربي القديم ، ويقارن بين انواع الشعر عند العرب والأفرنج وكأنه من خلال هذه المقارنة يريد أن يعرف الأديب العربي علىانماط أدبية جديدة ، حتى عندما تناول تأثير الألياذة في الآداب الأوربية ، اتخذ من هذا التناول مدخلا للحديث عن النظرة القاصرة لدى العرب الى التأثر ، حينما عدوه نوعا من السرقة ، بينما الغربيون - كمايقول - لم يكن لديهم حرج في الافادة من الياذة هوميروس ،مما يوحي بأن المؤلف يريد من خلال هذه المقارنة التنبيه إلى أهمية أن يطلع الأديب العربي على الابداعات الأدبية الأجنبية،حتى ننهض بأدبنا الحديث [1].

وما يؤكد صحة ماذهبنا اليه من ربط لنشأة الأدب المقارن وتطوره في الوطن العربي بالتفكير النهضوي ، أن قسطاكي الحمصي عندما ألف كتابه (منهل الوارد في علم الانتقاد) ، الذي

[1] لمزيد من التفصيل حول دور البستاني في نشاة الأدب المقارن في الوطن العربي ، ينظر: آفاق الأدب المقارن ، ص155- 167، ومقدمة في نظرية المقارنة ، ص144-153.

صدر الجزء الأول منه عام 1907م ، كان يطمح من خلال المقارنة الى تعريف العرب على الأتجاهات النقدية لدى الغرب ، فهو يقول في مقدمة كتابه : "وإني لم أزل منذ ستة عشر عاما أتتبع سير هذا الفن الجليل مكباً على مطالعة كتب من الفرنسيس أصحاب الباع الطويل حتى صار ذلك هوى النفس لا تنزع إلا إليه وشاغل الطرف لا يحب أن يقع إلا عليه وفي خلال ذلك كنت أقلب القديم والحديث من كتب العرب لعلي أظفر بشيء مترجم عن اليونان أو بكنز فكر في بعض الزوايا ، احتجبت فلم أفز بالضالة المنشودة ولا يجد المرء معدوماً وإن بذل مجهوداً فكاتبت في ذلك بعض الأخوان والأدباء وجهابذة العصر وأئمة العلماء في الشام والأقطار المصرية وغيرها من البلاد العربية لعلهم يكونون قد عثروا على شيء من ذلك فكانت أجوبتهم مكذبة رائد الآمال هنالك .." (1)

ومن الطبيعي في تلك المرحلة المبكرة أن لايجد المؤلف كتبا نقدية عربية فالمؤلفات العربية القديمة كانت في تلك المرحلة لاتزال مخطوطات محفوظة في المتاحف ، ولم يكن هنالك مؤلفات عربية حديثة في النقد الأدبي ، سوى مقالات ادبية متفرقة ، ولهذا شعر المؤلف أنه يقدم شيئا جديدا للقارئ العربي ، يقول : " وهنا لا بد لي من أن أقص على القارئ ما دهاني من الحيرة الاضطراب عند

(1) منهل الوارد في علم الانتقاد ، قسطاكي الحمصي،ج1، مطبعة الأخبار ، القاهرة ، ص 3 .

أخذي القلم لتأليف هذا الكتاب إذ كل ما كنت أطلعت عليه من كتب هذا الفن في اللغة الفرنسوية لا ينطبق على ما عقدت على تأليفه النية إلا من وجه خفي.. فإن جميع ما قرأته لجهابذة هذا الفن المشهورين مثل سنت بوف وريناـن وتين وفردينان وبرونيير وأميل فاجيه، وجول لومتير وأدولف بريسون، وغيرهم من المعاصرين لا يتعدى نقد مؤلفات وموضوعات ومتفننين " [1].

وفي هذه الحالة علينا ألا نطالب المؤلف بدراسة التأثير لأن هدفه هنا نهضوي، ولم يكن هدفه اثبات الفضل لأدب قومي معين ، والدليل على مانقول أن المؤلف عندما أصدر الجزء الثالث من كتابه في مرحلة لاحقة سنة 1935 اختار له عنوان " الموازنة بين الألعوبة الالهية ورسالة الغفران وبين أبي العلاء المعري ودانتي شاعر الطليان " تناول فيه تأثر دانتي في الكوميديا الالهية ،بالثقافة العربية عامة لاسيما رسالة الغفران ، ففي الثلاثينيات كانت النهضة العربية قد قطعت شوطا كبيرا في الافادة من الآداب الأوربية ،ومن المناسب في هذه المرحلة أن تظهر دراسات تتناول التأثير والتأثر ، ولاسيما بعد أن لفت طه حسين في مقدمة نقد النثر – الذي قام بتحقيقه – نظر الدارسين إلى أثر البلاغة اليونانية في البلاغة العربية[2]، فظهرت الكتب والمقالات التي تتناول قضايا التأثير والتأثر بين الأدب العربي

---

(1) نفسه، ج1 ، ص5 .
(2) ينظر مقدمة نقد النثر ، ص 3وما بعدها.

وغيـره مـن الآداب ، و لكـن ظـل الهـدف الأسـمى لهـذه الدراسـات هوتحقيق التواصل مع الآداب الأخرى ، وتغيير النظرة القاصرة إلى التـأثر ، ولـذا فقد استمرت دراسـة التـشابه والأخـتلاف ، بـين الأدب العربي والأداب الأخرى ، حتى بعد ظهور مصطلح الأدب المقارن .

وهذا قد يفسر لنا الأسباب التي دفعت هؤلاء إلى عدم الاهتمام بمـصطلح الأدب المقـارن ، فلـم تـشر أيـة دراسـة سـابقة إلـى هـذا المـصطلح ، فقد ظهـر لأول مـرة عـام 1936 ، لـدى كـل مـن خليـل هنداوي ، وفخري أبو السعود في مجلة الرسالة ، وكانت الريادة في ذكر المصطلح تنسب إلى فخري أبو السعود ، إلى أن اكتشف حسام الخطيب مقالة خليل هنداوي التي نشرت قبل أول مقالة تحمل هذا المـصطلح عنـد فخـري أبـو الـسعود بثلاثـة أشـهر ، ولايهمنـا هنـا أن نرجح كفة أحدهما وإنما أن نتعرف على تأثير التفكير النهضوي لدى الكاتبين الواعيين بالمصطلح .

بدأ فخري أبو السعود منذ سنة 1935م ، نشر مقالات في الرسالة تناول في كل مقالة ظاهرة أدبية يقوم بتتبعها في الأدبين العربي والإنجليزي [1] ، ولكن مصطلح الأدب المقارن لم يظهر إلا عـام 1936بعـد نـشرعدد مـن هـذه المقـالات ، ففـي 21/9/

([1]) ينظر على سبيل المثال أعداد مجلة الرسالة :80 ، (83) ،180 ، 183 ، 184 ، 185 ، 186 ، 189 ، 190 ، 191 ، 192 ، 193 ، 194 ، 195 ، 196 ، 197 ، 199 ، 200 ، 208 ، التي يقارن فيها المؤلف التشابه والاختلاف بين الأدبين في عدد من القضايا منها: النزعة العلمية ، الطبيعة ، الخرافة ، الوصف ، القصص ، الخيال ، ...في الأدبين العربي والإنجليزي .

1936ظهرت مقالة له بعنوان " في الأدب المقارن :الأثر الأجنبي في الأدبين العربي والأنجليزي " وأستمر ظهور المصطلح مضافا الى عناوين كافة المقالات اللاحقة ، ومن الغريب أن الكاتب في المقالات السابقة لذكر المصطلح ،وفي المقالات التي أضاف إلي عناوينها هذا المصطلح يعالج التشابه والاختلاف بين الأدبين ، دون الالتفات لما وضعه الفرنسيون في تعريف هذا المصطلح ، وتحديد مجاله بدراسة التأثير والتأثر بين أدبين قوميين مختلفين في اللغة ، ولا أتفق مع الذين حاولوا أن يجعلوا جهوده سبقاً للمنهج الأمريكي الذي ظهر في الخمسينيات من القرن العشرين أي بعد هذه المقالات بما يقرب من خمسة عشر عاماً ، بحجة أنه انصرف إلى دراسة تشابه النصوص ولم يهتم بالتأثير ، فعطية عامر يقول مقيما جهود فخري أبو السعود : " إذا عرفنا ذلك كله كان من حقنا أن نقول إن فخري أبو االسعود قد خرج بالأدب المقارن من مجال الاتجاه التاريخي قبل أن تبدأ المدرسة الأمريكية ثورتها ضد الاتجاه التاريخي " [1] .

وفي الحقيقة أن فخري أبو السعود لم يكن مهتما كثيرا بجماليات النصوص ولم يهمل دراسة التأثير فلديه مقالة صدرت عام 1934قبل ظهور هذه المقالات التي يقارن فيها بين الأدبين العربي والأنجليزي بعنوان " الأثر اليوناني في الأدب

(1) ينظر : تاريخ الأدب المقارن في مصر ، ص 18 – 19 .

العربـي "[1] ولكنـه ينطلـق فـي دراسـاته المقارنـة مـن نـسق ثقـافي نهضوي كغيره من المقارنين العرب ، فدراسة التشابهات لاتمثل سبقا للاتجـاه الامريكـي ، و لا تعـد خروجـا عـن متطلبـات الأدب المقـارن علــى رأي بعــض المقــارنين المتعــصبين للاتجــاه الفرنــسي ، لأن منطلقـات المقـارن العربـي فـي تلـك المرحلـة تختلـف عـن منطلقـات الاتجاهين سواء أدرس التأثير أم التوازي ، فهو يرمي من خلال ذلك إلى الكشف عن جوانب النقص في أدبنـا ،من خلال تعريف القارئ على ايجابيات الآداب الأخرى ، فهو يقول في معالجته لأثر اليونـان في أدبنا القديم ، منبها إلىأهمية التأثر والافادة من الآداب الأخرى ، وخطورة الانغلاق واتقوقع : " فلاغرو إن طفرت تلك الآداب الغربية التي لم تكد في عهد النهضة تكون شيئا مذكورا .. فإذا هي بعد قرون ثلاثـة أواربعـة تـسبق الأدب العربـي وهـو أعـرق منهـا.. لأن الأدب العربـي الـذي لـم يكـد يـستفيد بـأدب أمـة أخـرى ظـل فـي مكانـه جامـدا يكررنفسه ويعيد على نفسه الابواب عينها التـي جـال فيهـا المتقدمون من فخر ورثاء ومدح و هجاء ، حتى إذاكان العصر الحديث إذا هو يقف من الآداب الغربية موقف التتلمذ والتلقن " [2] .

وحتـى فـي المقـالات التـي أضـاف إلـى عناوينهـا مـصطلح الأدب المقارن ، لم يهتم فيها بتتبع التأثير و العلاقات التاريخية بين الأدبين ،

([1]) الأثر اليوناني في الأدب العربي،فخري أبو السعود ، الرسالة ،العدد 49، يونيو 1934 ،ص968-969 .
([2]) نفسه ، ص969 .

لأنه لا يهدف الى اثبات فضل أدب على الآخر ، وإنما سخر هذه المقارنات لخدمة النهضة والتجديد في أدبنا العربي الحديث ، وللهجوم على دعاة التقليد الذين يرون أن الأدب العربي لايحتاج الى الآداب الأخرى ، فهو على سبيل المثال عندما تناول الخيال في الأدبين العربي والإنجليزي [1]، كان على دراية بأن ما يقدمه يدخل ضمن الأدب المقارن ، لكنه لم يهتم بتعريف هذا المصطلح ولم يلتزام بقواعده التي كانت متداولة أيامه ، وإنما انصب اهتمامه في إظهار تفوق الخيال الإنجليزي و ضآلة الابداعات العربية ، فالخيال الانجليزي في رأيه له مكانة ومنعة تتمثل في موضوعات الأدب وأشكاله[2] ، وكأنه يريد أن يغير المفهوم المتداول لدى الكلاسيكيين العرب عن التأثر وتفضيلهم الأدب العربي الكلاسيكي على غيره من الآداب ،ولذا فهو يرد ما حدث من تطور نسبي للخيال في الأدب العربي في العصر العباسي إلى اختلاط العرب مع غيرهم من الأمم [3] ، وعلينا أن ننظر إلى موقفه هذا من خلال النسق الثقافي النهضوي والصراع مع التيار المحافظ ، ويبدو هدفه التنويري جليا في نهاية مقالته حينمايشير الى عوامل ضعف الخيال العربي فيجعل من أهمها نزعة الجمود التي تطالبه بمحاكاة الأقدمين وعدم إفادة

([1]) ينظر : من الأدب المقارن : الخيال في الأدبين العربي والإنجليزي ، فخري أبو السعود ، مجلة الرسالة ، العدد (201) السنة الخامسة ، مايو 1937م ، ص 772 – 775 .

([2]) نفسه ، ص 774 .

([3]) نفسه ، ص 774 .

الأدب العربي القديم من الأدب الأغريقي[1] ،حتى المقالة التي افتتح بها ذكر مصطلح الأدب المقارن ، وتضمن عنوانها مايوحي على باهتمامه بتتبع التأثيروالتأثر (الأثر الأجنبي في الأدبين العربي والانجليزي) اكتفى فيها بمقارنة التشابه والاختلاف بين هذين الادبين في التأثر بالآداب الأجنبية ، واتخذ من هذه المقارنة وسيلة للكشف عن أهمية الافادة من الآداب الأجنبية ، وما خسره العرب الأوائل من جراء شعورهم بتفوق أدبهم وتحفظهم في الأخذ من آداب غيرهم ، وكيف أفاد الانجليز من آداب القوميات الأخرى فزادوا أدبهم غنى ورفعة([2]) .

أما خليل هنداوي فقد سبق فخري أبو السعود إلى ذكر مصطلح الأدب المقارن و التعريف به،ويعد رائدا في هذا المجال ،حيث نشر في الرسالة في 1936/6/8 ، مقالة عنوانها : " ضوء جديد على ناحية من الأدب العربي : اشتغال العرب بالأدب المقارن أو مايدعوه الفرنجة comparee literature في كتاب تلخيص كتاب أرسطو في الشعر لفيلسوف العرب أبي الوليد بن رشد "[3] فقد ذكر المصطلح الفرنسي ، والمصطلح العربي المقابل ، ومع هذا لم يلتزم في

([1]) نفسه ، ص 775 .

(2) ينظر : من الأدب المقارن :الأثر الأجنبي في الأدبين العربي والانجليزي ، فخري أبو السعود ، الرسالة العدد 168تاريخ 1936/9/21.

([3]) نشرت هذه المقالة في مجلة الرسالة ، العدد 253، 8/6/ 1936،ص 938.وأعادنشرها حسام الخطيب في كتابه آفاق الادب المقارن ، ص213.

التعريف بالمصطلح ، بالمفهوم الفرنسي للأدب المقارن ، وإنما ركز على الأبعاد التواصلية ، والانسانية بمايتلاءم مع التوجه النهضوي العربي الداعي الى الانفتاح على إداب العالم فينظر اليه على أنه وسيلة من وسائل الاتصال بين الأمم ، يقول :" وهكذا نشأت الصلات الأدبية بين الامم ... وربطت بين المفكرين ربطا لا يقوم على مصالح سياسية أو مطامع مادية ، وإنما يقوم على رفع منارة الفكر وإعلاء كلمة المفكر فما أطهر هذه الرابطة لو أنهاتخرج من هذا العالم غير المحدود الى العالم الذي سورته الحدود فنجد الأديب الفرنسي يحلل الأديب الألماني دون أن تطغى على قلبه سورة الحقد وتجد الأديب الألماني يكتب عن الأديب الفرنسي من غير أن تغلب عليه موجدة . ذلك أن عالم الفكر سما بهما فوق عالمهما المحدود الذي غمرته الحزازات ، وتقطعت بين وشائجه االسباب فهما يتفاهمان في ذلك العالم ويصافح بعضهما بعضا "[1]

ومن هذا المنطلق يحدد مجالات الأدب المقارن فتبدو مختلفة عن مجالات الاتجاه الفرنسي الذي إهتم بدراسة التأثير ، يقول : " هذا هو الأدب بالمقارنة يعمل على درس مميزات أدب كل أمة بمقارنتها مع ميزات غيرها من الأمم وهو ادب

([1]) اشتغال العرب بالأدب المقارن ...،خليل هنداوي ، الرسالة ، ص 938،وآفاق الأدب المقارن ، ص213 .

- كما - قلت حديث الخلق شجع على نشره شيوع رسالة الأدب الأنساني "[1]

فقد كيف مفهوم الأدب المقارن ليتلاءم مع حاجةالأدب العربي الى الانفتاح على آداب العالم و لذا اتخذ من حديثه عن تلخيص ابن رشد لكتاب فن الشعر مثالا لانفتاح الأديب العربي القديم ، على آداب أخرى داعيا الأديب المعاصر إلى أن يحذوا حذو ابن رشد في ذلك ،لتحقيق نهضة أدبية ، يقول : " إن فضل ابن رشد على الأدب العربي في هذا الكتاب لفضل عظيم ؛ لأنه يدل على العربي الأول الذي كتب عن الأدب بطريق المقارنة ، ووفق في هذه المقارنة كثيرا ويدل بعد ذلك على أن العرب جربوا أن يدرسوا الآداب الأجنبية ، ويفيدوا من قواعدها ، وإن دراستنا اليوم للأدب الأجنبي أكثر ضرورة منها بالأمس بعد أن امتزجت عوالم الفكر واتحدت مناهج الأدب وأصبح لايليق بنا أن نترك الأدب العربي محصورا في عزلته بحجة صيانته ووقايته وما الذي يخشى عليه؟ وإنما صيانته ووقايته في تعريضه للهواء والنور لا في حجبه عنهما، وفي تقريبه من الأداب العالمية حتى يساهم معها في في تأدية رسالتها لا في تنفيره

([1]) نفسه ، الرسالة ، ص938.وآفاق الأدب المقارن ، ص213

منها وتنفيرها منه على أن يبقى أدبنا محتفظا بألوانه ، ويبقى أديبنا عاملا على إبدائها لا على إخفائها "[1]

وهكذا ظل الأدب المقارن في الوطن العربي إلى مطلع الخمسينيات متأثرا بالنسق الثقافي النهضوي في تلك المرحلة ، فانطلق المقارنون العرب في دراساتهم التطبيقية ، وفي تحديد مفهوم هذا المصطلح من الحرص على أهمية التواصل بين العرب وغيرهم من الأمم لأحداث نهضة شاملة في الأدب العربي ، ولذا نجد أنهم تركو بصمات تميزهم عن الاتجاه الفرنسي الشائع في تلك المرحلة ، فاختلاف الأنساق الثقافية - كما ذكرنا من قبل - كان سببا في ظهور اتجاهات أخرى بعد ظهور الاتجاه الفرنسي كالاتجاه الأمريكي و الاتجاه الماركسي والاتجاه الألماني ، وإذا كانت الدراسات العربية قد ظهرت قبل ظهور معظم هذه الاتجاهات ، فإن ذلك يدل على أن الباحث العربي حدد مفاهيم الأدب المقارن وتطبيقاته بما يتلاءم مع منطلقاته في تلك المرحلة ، وكما لايجوز أن نخرج الدراسات الأمريكية التي لاتتناول التأثير من الأدب المقارن ،لأنها لاتلتزم بشروط الاتجاه الفرنسي ،كذلك لايجوز أن نقيم الدراسات العربية من هذا المنظور ، فلم تبدأ مرحلة تبني الاتجاهات الغربية في الأدب المقارن - دون مراعاة لخصوصية النسق العربي - إلا في الخمسينيات من القرن العشرين

([1]) نفسه ، ص 939. وآفاق الأدب المقارن ، ص214.

عندما عاد الدكتور محمد غنيمي هلال من فرنسا ، يحمل شهادة الدكتوراه في الأدب المقارن وفق الرؤية الفرنسية ، فأصدر كتاب " الأدب المقارن " عام 1953 ، الذي كان له تأثير كبير في شيوع الاتجاه الفرنسي في الوطن العربي حتى مطلع السبعينيات [1] ،و توالى بعد ذلك ظهور إو تبني الاتجاهات الأخرى ؛ فظهر الأتجاه الأمريكي في السبعينيات ومابعدها " بتأثير ترجمة كتاب رينيه ويليك واوستن وارين " نظرية الأدب " عام 1972م ، وتعتبر بداية الثمانينيات في العالم العربي بداية الموجة الجديدة في الأدب المقارن بعد غنيمي هلال ، هذه الموجه تعرفت أكثر على المنهج الأمريكي ، وبدأت تقتنع باحتضار المنهج الفرنسي "[2].وهذا يعني أن بعض المقارنين العرب المعاصرين ، لم يعترفوا بحق المقارنين العرب الرواد ،في الخروج عن قواعد الاتجاه الفرنسي ، بينما استجاب بعضهم إلى دعوات الاتجاه الامريكي الذي قام على أنقاض الاتجاه الفرنسي فيما بعد استجابة لسياق يلبي توجهات الثقافة الامريكية – كما ذكرنا -

و هذا يعني أن دخول الاتجاهات المختلفة في هذه المرحلة اتسم بالتقيد المنهجي ، دون الاستجابة لمتطلبات المرحلة ، وكأن الدارس العربي يفضل تكييف واقعه لما يأتي من الخارج على تكييف مايأتي من الخارج وفق ماتمليه عليه ثقافته .

([1]) تاريخ الأدب المقارن في مصر ، ص 20 ، وينظر أيضاً : مقدمة في نظرية المقارنة ، ص 25 .
([2]) مقدمة في نظرية المقارنة ، ص 25 .

فبعد أن تعرف المقارن العربي على الاتجاهين الفرنسي ثم الامريكي تعرف في تسعينات القرن العشرين على الاتجاهين الماركسي والالماني من خلال ترجمة بعض الدراسات الاجنبية وكتابة بعض المقارنين عن هذين الاتجاهين فقد ترجم كتاب المقارن الماركسي الكسندر ديما تحت عنوان (مبادئ علم الادب المقارن) وترجمت فصول من كتاب المقارن الألماني فايسشتاين . وفي ظل التقيد المنهجي لانجد اضافات أو بصمات ذات اهمية للمقارنين المعاصرين، ونحن بحاجة اليوم الى الافادة من هذه الاتجاهات ، لخلق اتجاه عربي ، -لاسيما أن بذوره قد تكونت كما لاحظنا لدى المقارنين العرب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين - منطلقين من متطلبات سياقنا الثقافي الراهن .